
اجاثا كريستي
الحصان الشاحب



على فراش الموت، تُرضي السيدة "دافيس" ضميرها، وتعترف لأحد الكهنة: الأب "جورمان" الذي لم يجد حتى الفرصة للوصول إلى داره؛ فقد اغتيل على الطريق. تُرى أي سر كان يُؤتمن عليه؟ وما معنى قائمة الأسماء التي حرص على إخفائها في حذائه؟! لقد أفاد التحقيق بأن أغلبية الأسماء مات أصحابها على فرشهم بوفاة ظاهرها طبيعيّ، ومع ذلك فقد جذب انتباه الكاتب الناشئ "مارك إستربروك" بعض أوجه التشابه في الأعراض. وفي الحال قام "بروك" بحملة اشتبه فيها بثلاث آنسات عوانس يشتهرن بالتنويم، وهو السلاح المميت الذي استخدمنه وفقا لأقوالهن. ولما سُلّطت عليهن أنظار المحيطين بهن لجأن إلى سكنى أوبرج "الحصان الشاحب". رواية "الحصان الشاحب" رواية محبوكة، تتسم بالحذق والدقة بحيث يشعر قارئها بالرغبة في مواصلة قراءتها حتى الخاتمة غير المتوقعة.

ولقد بذلت "أجاثا كريستي" في تأليفها جهدا كبيرًا.

ثمن النسخة

لبنان	5000 ل. ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	100 ل. س.	مسقط	1,5 ريال
الأردن	1,5 دينار	مصر	20 جنيها
السعودية	10 ريالات	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	3 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1,5 دينار	اليمن	400 ريال


ISBN 995338241-7
9 789953 382418

الحصان الشاحب

قام بعون الله الأساذان / **أشرف جمال**

ومحمد الجندي

مشكورين بمراجعة هذا الكتاب وتدقيقه وتصويب أخطائه اللغوية والمطبعية.

تاليف

Agatha CHRISTIE

الاسم الأصلي للكتاب

The Pale Horse

(1961)

الغلاف بريشة الفنان العالمي

جان روفينو

برنارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعرّبة

الحصان الشاحب

(95)

تأليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب الراحل

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

المركز الدولي

للصحافة والنشر والتوزيع ش.م.م.

تليفون 666 212 9 961 00 فاكس 665 212 9 961 00

ص.ب 374 جونيه – لبنان

البريد الإلكتروني info@darmusic.net

الفصل الأول

أطلق المرشح من خلفي صفيرا أقرب ما يكون إلى صفير ثعبان ثائر. كان للصوت في حد ذاته ما يوحي بأنه مشؤوم، يكاد أن يكون شيطانيًا. ففكرت محدّثًا نفسي بأن الأصوات التي تزعجنا في أيامنا هذه عديدة. فمن أزيز الطائرات المحلّقة في السماء إلى صوت المترو الذي يطلق صفيره المدوي عند خروجه من النفق، وكذلك الأحمال الثقيلة التي تهز المنازل عند مرورها بجوارها.. وحتى الأجهزة المنزلية التي لا غنى عنها مثل: الثلاجات الكهربائية وكذلك المكانس، وكأنها تقول: "خذوا الحذر، إني نابغة خاضعة لخدمتكم، لكنكم قد تفقدون حسن استخدامكم لي و.." عالم خطير، آه كم عدده! جلست أُقلّب الشراب الموجود بالقدح الموضوع أمامي الذي تنبعث منه رائحة ذكية.

– وماذا مع هذا المشروب ياسيدي؟ساندويتش بالموز وبالقديد؟ كنت حينئذ في" شيلسي" . وإذ بدت لي هذه المواد المختلطة غريبة، خضعت لعادات المكان وقبلت الساندويتش الذي عُرض عليَّ، وعلى الرغم من أني مقيم في "شيلسي" منذ ثلاثة أشهر في شقة مفروشة، إلا أني كنت أشعر بالغربة من جميع النواحي. وفي هذه الفترة كنت أقوم بإعداد كتاب عن الفن المعماري المغولي، ولإنجاز مثل هذا العمل كان في وسعي تحديد إقامتي في"هاميستيد" أو "بلومسبيري"غير أني كنت أعيش في عالمي الخاص، غير مبال بالمرة بالوسط المحيط بي إلا أنني شعرت في تلك الأمسية بنوبة تقزز مألوفة. تلك التي كثيرًا ما تحدث لدى الكتّاب. شعرت فجأة بأن الفن المعماري المغولي وكل ما يخص الحياة المغولية أصبح بالنسبة إليَّ غبارًا ورمادًا. أي منفعة ستعود عليَّ منها؟ وما هو هدفي من الكتابة بشأن ذلك؟ أعدت قراءة ما قمت بكتابته فوجدته رديئًا من حيث الفكرة والأسلوب. أبعدت عني الورقة وتطلعت إلى ساعة يدي.. إنها الحادية عشرة تقريبًا. تساءلت: هل تناولت

عشائي؟ وأجابتني معدتي حينئذ: "لا" وبالنسبة إلى وجبة الغداء فقد كانت بعيدة جدا. ولم يكن بالثلاجة سوى قطعة لسان جافة غير مغرية للأكل. من أجل ذلك نزلت إلى شارع "كينجز رود" ودخلت بالمصادفة مقهى تعلوه لافتة بنور الـ"نيون" باسم: "ليجي". فما كان مني إلا أن جلست أمام الساندويتش الموضوع أمامي(وبه موز وقديد)، أفكر في هذه الأصوات الصادرة عن أجهزة الحياة العصرية، وفي الشر الذي يؤثر فينا أكثر من الخير وفي رتابة الحياة. تكرر صفير المرشح. طلبت قدح قهوة آخر، وألقيت نظرة حولي، وإذا بإحدى شقيقاتي تتهمني بأني لست لماحًا وأني شخص لا يلاحظ ما يدور حوله. وحاليًا تحققت من كل شيء. الإضاءة ضعيفة جدا بالمقهى وبالتالي الرؤية صعبة، أغلبية الزبائن من الشباب، ولقد بدت لي الفتيات قذرات كما هي الحال حاليا. على ما يبدو أيضًا أنهن كنَّ يرتدين ملابس ثقيلة تبعث بالدفء، كما سبق ولاحظت عندما كنت أتناول غدائي مع بعض الأصدقاء، كانت جارتنا وهي فتاة في العشرين من عمرها ترتدي صدرية من الصوف الأصفر وتنورة سوداء وجوربًا من الصوف الأسود على الرغم من حرارة الجو الشديدة، وكان وجهها لامعا من العرق المتصبب منه، كما كانت تصدر عنها رائحة الصوف المشبع بالعرق والشعر غير المغسول. وبحسب رأي أصدقائها تعتبر جذابة جدًّا. أمَّا بالنسبة إليَّ، فلم تكن لدي سوى رغبة واحدة، وهي أن ألقي بها في حمام دافئ مع قطعة من الصابون آمرًا إيّاها باستخدامهما بهمة. كان هذا الإحساس- حسب اعتقادي- يشير إلى أني فريد من نوعي في جيلي. قد يرجع ذلك إلى حياتي في الخارج. تذكرت حينئذ الهنديات بشعورهن السوداء الجميلة والساري ذي الألوان الزاهية(الثوب الذي ترتديه الهنديات) تلك التي تتموّج مع كل حركة من الجسم...

وإذا بصوت مزعج ينتزعني من ذكرياتي الممتعة: مشاجرة بين شابتين أمام المائدة

المجاورة لمائدتي، ورفيقاهما يحاولان عبثًا أن يهدئا من ثورتهما.

وفجأة صفعت إحدى الفتاتين الأخرى، فما كان من هذه الأخيرة إلا أن انتزعتها من على مقعدها، ثم تبادلتا اللكمات مثل النسوة الصاخبات، مع التفوه بعبارات نابية. كان شعر إحداهما أحمر مجعداً منكوشا، وكان شعر الأخرى أشقر ناعما، ثم تعالت الصيحات من الموائد الأخرى:

– هيًا، اضربي، هيًا يا"لو". ولما كان"ليجي" جالسًا خلف البار– وهو على ما يبدو إيطالي– تدخل لفض النزاع وقال:

– كفى.. وإلا ستتدخل الشرطة. أكرر لكما كفى. لكن ذات الشعر الأشقر ظلت ممسكة بشعر الأخرى وتعمل على شده في عنف قائلة لها:

– إنك لست سوى خطّافة للرجال.

– إنه أنت. أخيراً تمكن كل من "ليجي" ورفيقي هاتين الفتاتين من تفريقهما وفض النزاع. لكن الشقراء–بحركة ظفر– لوّحت بخصلة من شعر الأخرى كانت قد انتزعتها من رأسها ثم ألقت بها على الأرض. فُتح الباب فجأة وظهر على عتبته شرطي حيث قال:

– ما الذي يحدث هنا؟ في الحال، كانت مواجهة وكأنها معركة، إذ أجابه أحد الشباب:

– إننا نمزح. و"ليجي" أيّده قائلاً:

– نعم، إنه مزاح بين أصدقاء. وكان قد دفع بقدمه خصلة الشعر تحت المائدة. والمهتمون بالأمر تبادلوا الابتسامات المصطنعة أمام نظرات الريب البادية في عينيّ الشرطي. أردفت الشقراء بنبرة وديعة:

– كنا على وشك الانصراف، هيًا يا" دوج". كما تراءى لبعض الزبائن أن يبتعدوا في اللحظة نفسها وكأنه بمحض المصادفة. غير أن الشرطي كان يتابعهم بنظراته.

قال:

– ليكن الأمر هكذا هذه المرة. ثم انسحب، ولكن لاشك في أنه سيعمل على مراقبتهم. وقام فارس الفتاة ذات الشعر الأحمر بدفع الحساب ثم في أثناء ما كانت الفتاة تعقد غطاء الرأس تحت ذقنها، سألها "ليجي":

– كيف حالك؟ أهكذا تتصرف معك "لو"، بانتزاع شعرك على هذا النحو؟

أجابته في شيء من اللامبالاة:

– لم أشعر بألم (ثم ابتسمت له) سامحنا يا "ليجي". وخرجوا جميعهم، وهكذا أصبح البار خاليا، ومن جانبي أخذت أبحث عن فكة. أردف "ليجي" مؤيداً تصرف الفتاة:

– إنها فطنة وصلبة. أمسك بعد ذلك بمكنسة ودفع بالشعر تحت المكتب، قلت:

–لاشك في أنها حركة مؤلمة. استطرد "ليجي":

– صدقني، لو كنت مكانها لصرخت بأعلى صوتي، ولكن "تومي" صلبة.

– هل تعرفها جيداً؟

– إنها تأتي هنا تقريباً كل مساء، ولقبها "توكيرتون".. "توماسينا توكيرتون". إنما هنا ينادونها "تومي توكر"، ومع ذلك معها ثروة تركها لها زوجها. وماذا تفعل الآن؟ إنها تقضي حياتها في حجرة قذرة كريهة في منتصف الطريق من "واندسورت بريدج"، تقضي حياتها في التسكع مع عصابة مثلها. وما يدهشني أن جميعهم عندهم من المال ما يكفل لهم حياة كريمة إذ إن في إمكانهم السكنى في "ريتز"، لكنهم يفضلون الحياة التي يحيونها. سألته:

– وماذا كان سبب المشاجرة؟

– آه! لقد أخذت "تومي" صديق الفتاة الأخرى. وهو لا يستحق مثل هذه المعركة، صدقني.

❖❖❖❖❖

بعد مضيٍّ أسبوع لفت نظري في باب الوفيات في جريدة ال "تايمز" الخبر التالي:
(توفيت في الثاني من تشرين الأول(أكتوبر) في عيادة" فالوفيلد آمبرلي" "توماسينا آن" عن عمر يناهز الواحد والعشرين عامًا وهي الابنة الوحيدة للمرحوم "توماس توكيرتون" . العزاء قاصر على تشييع الجنازة ولا داعي للزهور) . لم تكن للزهور أي تواجد للمسكينة" تومي" ولا حتى أقل" إعلان" في" شيلسي" . حينئذٍ شعرت بشفقة عابرة لـ آل "تومي توكر" . لكن ما الذي يثبت لي أن وجهة نظري سليمة؟ ألست أنا الذي أفسدت حياتي بإغراقها في الكتب؟ طردت عن أفكاري موضوع "تومي توكر" وركزت على البريد، أفضل خطاب كان لـ ابنة عمي "رودا ديسبارد"، تطلب مني خدمة. فكان هذا فرصة للتوقف عن العمل وخرجت. استوقفت سيارة أجرة أوصلتني إلى إحدى صديقاتي السيدة" آريادن أوليفييه" وهي مؤلفة روايات بوليسية شهيرة.وكانت وصيفتها "ميلي" تحميها من اعتداءات العالم الخارجي. حضرت هذه الأخيرة لفتح الباب عند أول دقة. رفعت حاجبًا مستفسرًا. حينئذٍ حكّت "ميلي" رأسها، وقالت:

–تفضل يا سيد "مارك" بالصعود؛ لأنها لا تتمتع بمزاج حسن صباح اليوم. قد تفيدها في استعادة مزاجها. ثم صعدت طابقين وقرعت الباب بخفة ودخلت دون أن أنتظر الرد. وإذا وصفنا مكتب السيدة "أوليفييه"، فهو فسيح وجدرانه مغطاة بورق حائط ومزدان برسوم طيور مجلوبة بين أغصان أشجار استوائية. وجدت السيدة "أوليفييه" في آخر حدود الضيق، تحدث نفسها وتتجول في حجرتها، ألقت إليَّ نظرة خالية من أي اهتمام وواصلت السير. كانت تغلق عينيها من حين إلى آخر حيث كانت تحت سلطان آلام فظيعة.قالت:

–لماذا؟ لماذا لم يخبرني في الحال هذا الغبي بأنه رأى الكتوة (ببغاء قابل للتعليم)

لماذا؟ ألم يتمكن من مشاهدته؟ لكن لو تحدث عنه ففي ذلك دمار.... لابد من وجود وسيلة.. نعم.. ثم زمجرت وأمسكت بشعرها القصير الرمادي بيديها بشدة. وفجأة رأتني:

– صباح الخير يا "مارك". لقد جننت، وكذلك، موضوع "مونيكا" كلما حاولت جعلها ممتعة بدت متشنجة.... إنها حقا فتاة غبية.... ومع ذلك فهي من الطبقة المتوسطة! "مونيكا" ...."مونيكا"؟ قد تكون مسألة اسم.... "سوزان"؟ عندي أيضًا غيرها "لوتشيا" ،"لوتشيا"! يبدو لي أني رأيتها.. ذات الشعر الأحمر؟ مع جورب أسود؟.... ثم محا تذكُّر الببغاء لحظة الإثارة هذه، وعادت السيدة "أوليفييه" إلى التجول في الحجرة ممسكة في أثناء مرورها بالتبلوهات التي كانت تعيد وضعها في أماكن أخرى لكن دون أن تنظر إليها. ثم وضعت نظارتها في صندوق به مروحة صينية ، وأطلقت زفيرًا عميقًا. قالت:

– إني سعيدة؛ لأنك أنت الوافد.

– شكرًا، إنها مجاملة منك.

– كان من الممكن أن يكون شخصًا غير مرغوب فيه.... وعن قصة هذا الببغاء.... كدت أُجَن بها. قلت :

– يحدث أحيانًا أن الظروف لا تاتي مناسبة. ليتني أنصرف.

– لا.. امكث. إنك تعمل على تسليتي. ابتلعت هذه الكلمات التي لاشك في أنها للمجاملة .قالت:

– إذا رغبت في سيجارة فقد تجدها في أي مكان، انظر في غطاء الآلة الكاتبة. أجبت:

– معي سجائري، شكرًا. تفضلي. آه! حقا.. إنك لا تدخنين.

– ولا أحتسي الشراب. يبدو أن الشرب يحل مشاكل أولئك المخبرين الأمريكيين،

من يحملون دائمًا زجاجة شراب معهم. أتعلم يا "مارك" أني أتساءل كيف يقضي أولئك الذين يرتكبون الجرائم؟ حياتهم أشعر بأن مثل هذا التصرف يتراءى لهم دائمًا.

– أمر شاذ. لقد تعرضت لذلك كثيرًا من جانبك.

– تعرضت لخمس وخمسين مرة على الأقل. الاغتيال في حد ذاته أمر سهل، إنما إخفاؤه أمر صعب وبالنسبة إليَّ أمر فظيع.

– لقد نجحت خمسًا وخمسين مرة، وسوف تنجحين مرة أخرى.

– وهذا هو ما أكرره لنفسي. وفي كل مرة لا أصدق نفسي وأعاني عذابًا أليمًا.

ومرة أخرى أمسكت بشعرها وقبضت عليه بشدة، حينئذٍ صرخت:

– كفى. ستنتزعين كل شعرك.

– غباء. الشعر متين غير أني كنت قد فقدت شعري عند مقدمة رأسي عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري عندما أصابتني الحصبة مع درجة حرارة مرتفعة، غير أنه نما بعد ستة أشهر. نعم، إنّ تساقط الشعر بالنسبة إلى الفتاة أمر مفزع، كنت أفكر في ذلك في أثناء توجهي بالأمس عند "ماري دي لافونتين" في العيادة. كان شعرها يتساقط كما حدث معي. ولابد من أن تستخدم "باروكة"، بعد أن تتحسن حالتها. أمّا في سن الستين، فمن المستحيل أن ينمو الشعر ثانية.

قلت بنبرة شخص مسرور؛ لأنه على صلة بالحياة:

– لقد رأيت فتاة تنتزع شعر فتاة أخرى ذات مساء.

– أين كنت؟

– في "شيلسي".. في أحد المقاهي.

– آه! في "شيلسي" من الممكن أن يحدث فيها كل شيء، أتوقع ذلك. لن أتكلم عنها لئلا أعثر على الكلمات اللازمة. من الأفضل أن أتحدث عما أعرفه جيدًا.

لكن بالمناسبة كم أتمنى أن تصطحبني إلى أحد مشارب "شيلسي" .

– متى؟ هذا المساء؟

– لا؛ لأني منهمكة في الكتابة أو بالتحديد؛ لأني متضايقة لعدم تمكني من الكتابة. أخبرني يا "مارك" ، هل من الممكن قتل شخص عن بعد؟

– ماذا تقصدين بذلك؟ أبالضغط على زر أم أنه بشعاع الموت؟ توقفت وبدت ساهمة:

– لا،لا، ليست بالعلوم الخيالية، إني أفكر في السحر الأسود الحقيقي.

– تماثيل صغيرة من الشمع بها دبابيس إبرة؟ قالت السيدة "أوليفييه" في سخرية:

– آه! لا، أسلوب قديم. يوجد في "إفريقيا" أمور غريبة، وكذلك في جزر"الأنتي" . إنهم لا يكفون عن الحديث عن أولئك الهنود الذين يموتون فجأة. إنه "فودو" (عبادة روحية لدى الزنوج) أم أنه: . . في النهاية أنت تعلم ما أريد قوله . . قلت:

– في أيامنا هذه، هذه الأحداث تُنسب إلى الإيحاء كأن يخبر الشخص الضحية بأن وفاته مقدرة على يد الطب. . . . والشعور بالباطن يقوم بالباقي. ازدردت السيدة" أوليفييه" الفكرة ثم أردفت:

– أن يُسمعني أحدهم أنه محكوم عليّ بالرقاد في انتظار الموت، أعليَّ تنفيذ خطته عن طيب خاطر وأكون راضية؟ ضحكت وأجبتها:

– إن الدماء المحَمّلة بالريب الغربي عبر القرون يجري في عروقك. إنك حقًّا مفتقرة إلى حالة التهيؤ. . .

– إذن إنك تعتقد أن مثل ذلك قد يحدث؟

– أنا لست ملمًّا بالموضوع أو بالمشكلة بالكامل لكي أحكم عليها. من الذي سيطر عليك بهذه الأفكار؟ تُرى هل سيكون اسم مؤلَّفك الجديد والبارز: "اغتيال بالإيحاء" ؟

– لا، حقًّا. سيكون عن وفاة الفئران، أو عن الزرنيخ، هذا يكفيني، أو أي آلة حادة. لكن لا داعي للأسلحة النارية. لكن هل أتيت إليَّ لكي تحدثني عن مؤلفاتي؟

– بصراحة لا، بصراحة لقد حضرت لكي أخبرك بأن ابنة عمي "رودا" سوف تقيم حفلا خيريا و...

– كفى! أعلمت ماذا حدث في المرة السابقة؟ كنت قد دبرت مطاردة للجاني ولقد تم اكتشاف جثة حقيقية، ومنذ تلك اللحظة لم أسترد صحتي.

– ليس هذا المقصود. كل ما عليك هو التوقيع على مؤلفاتك.. خمسة شلنات في كل مرة.

– من الممكن، لكن هل سأقوم بافتتاح الحفل أم إلقاء كلمات غبية أم أرتدي قبعة؟طمأنتها بأنه لن يكون هناك شيء من كل ذلك.قلت:

– لن تزيد المدة على ساعة أو ساعتين على الأكثر، وبعد ذلك تقام مباراة "الكريكيت" وبعض رقصات للأطفال ومسابقات لأحدث وأجمل الأزياء....

قاطعتني السيدة "أوليفييه" بصرخة وحشية:

– ها.. كرة "كريكيت" تصعد في الهواء.... من البديهي سيتلهى بها ولا يهتم بمراقبة الببغاء .يالحسن الحظ بمجيئك إلى هنا يا "مارك" ! إنك رائع.

– أنا لست مدركًا لما تقصدين.

– بالنسبة إليك ممكن، لكن بالنسبة إليَّ نعم.. إني مدركة الوضع تمامًا وليس لديّ الوقت الكافي لكي أفسر لك.لقد ابتهجت برؤيتك، لكنني أتمنى أن ترحل حاليا وفي الحال.

– بالتاكيد. وبشأن الحفلة....

– سوف أفكر فيها. كُفّ عن مضايقتي. أين وضعت نظارتي. الأشياء تختفي

بطريقة لا تُصَدَّق....

الفصل الثاني

فتحت السيدة "جيراهتي" باب مقر الأسْقُفِيَّة بحركتها العنيفة المعتادة وكأنها لا تستجيب لصوت جرس الباب إنما كمن تعلن انتصارا وهي تقول:« لقد تمكنت من الإمساك بك هذه المرة». وسألت الطارق بفظاظة:

– ماذا تريد؟ وكان الواقف على عتبة الباب صبيًّا عاديًّا. عطس؛ لأنه مصاب بزكام:

– هل الأب الكاهن يسكن هنا؟

– هنا الأب "جورمان"، ماذا ترغب؟

– إنه مطلوب.

– من، وأين، ولماذا؟

– شارع "بينتال" رقم 23، هناك سيدة تقول إنها ستموت. السيدة "كوبان" هي التي أرسلتني. هل هنا مسكن الأسْقُف؟ لقد قالت السيدة إن الراعي غير كافٍ لهذه المهمة. طمأنته السيدة " جيراهتي" وقالت له أن ينتظر ثم اختفت في الداخل. وبعد حوالي ثلاث دقائق ظهر كاهن فارع متوسط في العمر، ممسكًا حقيبة صغيرة بيده. قال:

– أنا الأب "جورمان". شارع "بينتال" أليس هو الموجود أمام مخازن السكك الحديدية؟

– بالضبط على بعد خطوتين من هناك. وابتعدا في مسيرهما جنبًا إلى جنب. وكان الكاهن يسير بخطى واسعة:

– السيدة ... "كوبان"، أهكذا قلت؟

– إنها مالكة المنزل. وهي تؤجر حجرات، وإحدى المستأجرات هي التي تطلبك وتُدعى "دافيس" على ما أعتقد.

– "دافيس"، إني أتساءل إذا ما... لا أتذكر...

– إنها واحدة منكم. أقصد كاثوليكية وهي لا تريد راعيًا. هزَّ الكاهن رأسه. وبعد قليل وصلا إلى شارع "بينتال"، حينئذٍ أشار الصبي إلى منزل مرتفع ذي لون داكن بين أبنية مشابهة، وقال:

– إنه هنا.

– ألا تدخل ؟

– إني غير مقيم هنا. لقد منحتني السيدة "كوبان" شلنًا مقابل هذه المهمة.

– حسنًا.. وما هو اسمك؟

– "ميك بوتر".

– شكرًا يا "ميك".

– عفوًا سيدي الأُسْقُف. هكذا أجاب الصبي وانصرف وهو يطلق صفيرًا، وكان يبدو أنه غير متأثر لحالة السيدة المشرفة على الموت. وكانت السيدة "كوبان" قد استقبلت زائرها بكل ترحاب:

– تفضل، ادخل. لقد ساءت حالتها والمفروض أن تقيم بالمستشفى وليس هنا. لقد اتصلت بالمستشفى هاتفيا، والله يعلم متى سيأتون. لقد اضطر زوج شقيقتي ذو الساق المكسورة إلى الانتظار ست ساعات. إنه خزي. هذا ما أود أن أخبرك به. وكانت تتقدم الكاهن في سلم ضيق، وهي تواصل كلامها:

– ما الذي حدث لها؟

– لقد أصيبت في بدء الأمر بالإنفلونزا، ثم بدت وكأنها تحسنت فخرجت مبكرًا جدا، وعندما عادت مساء أمس وجدتها شاحبة، فأدخلتها إلى فراشها. رفضت

تناول أي طعام وكذلك أن يعودها الطبيب. فوجئت صباح اليوم بأن درجة حرارتها ارتفعت جدا، والمرض لحق بصدرها.

- التهاب رئوي؟أطلقت السيدة "كوبان" زفيراً أقرب ما يكون إلى صفير آلة بخارية وهي تلهث، وفتحت الباب بكل قوة وتراجعت لكي تفسح الطريق للأب الكاهن. قالت في مرح مصطنع:

- ها هو الأب الموقر قد أتى من أجلك. الآن ستعافين. كانت الحجرة التي ترقد فيها نظيفة ومرتبة. جاهدت السيدة الراقدة على سريرها لكي تحوِّل رأسها نحوه. فعلا كانت علامات المرض بادية عليها.. تمتمت لاهثة:

- لقد حضرت... لا يبقى لي سوى القليل... ينبغي... أنا لا أستطيع أن أموت على هذه الحال... أريد أن أعترف... أمر خطير ... خطير جدا. وإذا بعينيها تهتزان والكلمات تتدفق من شفتيها بلا توقف. اقترب الأب "جورمان" من السرير وتكلم كعادته وكما سبق له مراراً كمن له سلطان وقدرة على منح الطمأنينة. عرف كيف يختار الألفاظ ذات المعنى المناسب لإيمانه وإيمانها. وهكذا دخل السلام إلى الحجرة. وبالتالي أصبحت النظرات الراقدة خالية من علامات الآلام التي تعانيها... ثم بعد أن مسحها الأب الكاهن بالزيت المقدس استطردت:

- توقف، توقف عن ذلك... هل ستنفذ ذلك؟ طمأنها الأب الكاهن:

- ثقي، وتأكدي بأني سأقوم باللازم. وبعد قليل وصل طبيب وسيارة إسعاف، حينئذ أردفت السيدة "كوبان":

- لقد فات الأوان... لأنها ماتت.

عندما عاد الأب "جورمان" إلى مقره كان الضباب ينقشع وبصيص من النور يتزايد. وقف الكاهن برهة وهو حائر، مقطبا جبينه وقال لنفسه: "يالها من قصة غريبة... كم من الوقت قضت في الخطرفة تحت تأثير الحمى؟". لاشك في أن

كلامها فيه شيء من الحقيقة ولو جزئيًّا، لكن ما هو؟ هذا إلى جانب هذا العدد من الأسماء التي ذكرتها والتي مازال يتذكر بعضها بالتحديد، وسوف تجتمع عنده رابطة "سان فرانسوا" فور وصوله. لكنه فجأة ولج إلى مقهى صغير وطلب قدحًا من القهوة وجلس ثم وضع يده في جيب جبته. آه، من هذه السيدة التي تدعى "جيراهتي"! لقد غفلت مرة أخرى عن حياكة البطانة. قال هذا؛ لأن مفكرته وقلمه ونقوده كلها كانت قد اخترقت الجيب. تمكن من الإمساك بطرف القلم وبقطعتين من النقود، لكنه لم يتمكن من الإمساك بالمفكرة. عندما أحضروا له قهوته طلب ورقة.

– هل يناسبك هذا؟ وكان الشيء المقدم له عبارة عن ورق قديم. قَبِلَه الأب "جورمان" وبدأ يكتب الأسماء أولا. هذا أمر مبدئي... بعد قليل فُتح باب المقهى، ودخل ثلاثة شبان واتخذوا لهم مكانًا في هدوء. بعد أن أنهى الأب الكاهن تسجيل قائمة الأسماء، طوى الورقة. وعندما همَّ بوضعها في جيبه تذكر أنه ممزق؛ لذلك لجأ إلى الاحتفاظ بالورقة في حذائه. بعد ذلك، دخل رجل في سرية وجلس في أقصى المقهى. تناول الأب "جورمان" رشفة من المشروب الموجود بقدحه ودفع حسابه وخرج. بالنسبة إلى الوافد الأخير، على ما يبدو أنه غيَّر رأيه، لقد ألقى نظرة خاطفة إلى ساعة يده وأسرع إلى الخارج. أخذ الضباب يتكشف بسرعة والأب "جورمان" أسرع الخطى. كان يعرف الحي معرفة جيدة، ربما أنه كان يشعر بخطوات من خلفه، غير أنه لم يعرها اهتمامًا. ولماذا يهتم؟تلقى فجأة ضربة مطرقة، جعلته يترنح للحظة ثم سقط على الأرض.



وهناك في مكتب المفتش "ليجين"، دخل الدكتور "كوريجان" وهو يطلق صفيرا مرحًا. قال مسرورًا:

– لقد أنهيت الفحص.

– وبعد.

– لقد حصل على ضربة مصوبة جيداً، كان من الممكن أن تميته في الحال. عمل قذر! قال "ليجين" مؤيداً:

– نعم. وهو شخص قوي البنيان، شعره كستنائي وعيناه رماديتان. كما كانت حركاته المعبرة تشير إلى أنه من أصل فرنسي. بعد برهة صمت، أضاف ساهماً:

– تصرُّفٍ أقذر مما تدعو إليه سرقة بسيطة.

– وهل كان الهدف هو السرقة؟

– القرائن كلها تدعو إلى هذا الاعتقاد؛ لأن جيوبه مقلوبة وبطانة جبته ممزقة.

– لكن، ماذا يُنتظر من العثور عليه مع كاهن؟... إن أغلبية الكهنة فقراء مثل "أيوب".

– لقد سُحق رأسه. لماذا؟

– أمامي إجابتان محتملتان. من الممكن أن يكون قد قتله وغد صغير لمجرد متعة القتل... وقد لا يكون هكذا للأسف.

– ماذا أيضاً؟

– قد يكون أحدهم متحاملا على الأب "جورمان". هز "ليجين" رأسه قائلا:

قطعاً غير محتمل؛ لأنه كان شخصاً شعبيًّا ومحبوباً من جميع رعيته. ولم يُعرف له عدو قط. أما عن السرقة فهي غير محتملة؛ هذا إلا إذا... سأله "كوريجان":

– إلا إذا ماذا؟ هل لديك دليل مادي؟

– فعلاً.. وجد معه شيء في حذائه... حينئذ أطلق "كوريجان" صفيرا.

– وكأنها قصة تجسس. ابتسم "ليجين" ثم أردف:

– الأمر أبسط من ذلك. كان بجيبيه ثقب. لقد استجوب الضابط "دين" مديرة

الدار. على ما يبدو أنها مهملة بعض الشيء ولا تهتم بخياطة أي تمزق بملابس الكاهن كما كان ينبغي أن تفعل. ووافته بأن كثيراً ما كان الأب "جورمان" يضطر إلى وضع قطعة ورق في حذائه... حتى لا تسقط من بطانة جبته.

– وهل كان الجاني يجهل ذلك؟

– إنه لم يفكر في هذا الأمر بالتأكيد. هذا إذا سلمنا بأن الحصول على مثل هذه الورقة أفضل من الاستيلاء على هذا المبلغ المتواضع الذي كان معه.

– وما الذي تحتوي عليه هذه الورقة؟ نبش "ليجين" في أحد الأدراج وأخرج قطعة ورق مكرمشة. قال:

إنها قائمة أسماء. حينئذٍ ألقى إليه" كوريجان" نظرة فضول:

" أوميرود"

" ساندفورد"

"باركينسون"

" هيسكيث ديبوا"

" شو هارموندسورث"

" توكيرتون"

" كوريجان"

" دي لافونتين"

حينئذٍ صاح الطبيب:

–اسمي موجود في هذه القائمة!

– وهل يفيدك أحد هذه الأسماء؟

– لا أحد.

– ألم تتقابل قط مع الأب "جورمان"؟

– نعم . . لم أتقابل معه.

– إذن فإنك لن تفيدنا بشيء.

– هل لديك فكرة عمّا تعنيه هذه القائمة؟ هذا إذا كان لها معنى أو مقصد. لم يعطِ "ليجين" إجابة مباشرة:

– لقد حضر صبي حوالي الساعة السابعة لكي يصطحب الأب "جورمان"، قائلا إنه توجد سيدة في حالة احتضار تطلب الأب الكاهن، وانصرف الأب "جورمان" معه.

– أين هذا؟ هل تعرفه؟

– لم نحتج إلى وقت طويل للعثور عليه فهو يوجد في 23 "بينتال ستريت" والمنزل تمتلكه سيدة تدعى السيدة "كوبان" والمريضة اسمها "دافيس". وصل الأب الكاهن في السابعة والربع، ومكث حوالي نصف الساعة، غير أن السيدة "دافيس" توفيت قبل وصول عربة الإسعاف التي كانت مزمعة على أن تنقلها إلى المستشفى. لقد عثرنا على أثر الأب "جورمان" في مقهى صغير من الدرجة الثالثة، ثم– بعد أن بحث في جيبه عن شيء ولم يعثر عليه– طلب ورقة من "توني" المالك.

– وبعد؟

– رآه "توني" وهو يُسَطِّر على الورقة بعض الكلمات. وانصرف بعد قليل دون أن يتناول القهوة، الأمر الذي لا أستطيع أن أذمه عليه.

– ألم يكن في المقهى غيره؟

– ثلاثة صبية ورجل في مقتبل العمر، انصرف هو أيضًا دون أن يتناول شيئًا.

– هل تتبع الكاهن؟

– هذا محتمل. "توني" لم يره عند الانصراف، كما أنه لم يتأكد من ملامحه. إنه

معطفًا أزرق أو بنيًّا. وشعره لا هو بالأشقر ولا هو بالبني. ولم يكن هناك مبرر لكي يلتفت إلى أمر مثل هذا. ولم يظهر ثانية حتى الآن. ثم ناشدنا كل من شاهد الأب الكاهن فيما بين الساعة الثامنة إلا الربع والثامنة والربع أن يكونوا على اتصال دائم بنا. ولم يتقدم لنا حتى الآن سوى سيدة وصيدلي له محل في الأنحاء المجاورة لنا. سأتوجه لمقابلتهما فوراً. ولقد عُثر على الجثة حوالي الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة عن طريق صبيين صغيرين في "ويست ستريت". هل تعرفه؟ إنه شارع ضيق بجوار السكة الحديد أخذ "كوريجان" ينقر على الورقة ثم قال:

– وما هو انطباعك بشأن هذا الموضوع؟ أجاب "ليجين":

– أعتقد أن الموضوع مهم.

– كانت السيدة التي تحتضر قد كشفت له عن هذه الاسماء ومن جانبه، قام بتسجيلها قبل أن ينساها. ترى هل كان يقوم بذلك وهو ملتزم بكتمان سر الاعتراف؟

– ليس هناك ما يثبت أنه متمسك بالكتمان. ولنسلم جدلا بأن هؤلاء– من سُجِلَ أسماؤهم– قد انغمسوا... لنقل في موضوع نصب أو تهديد. مجرد احتمال، وهل كانت المدينة على علم بالأمر؟ ندم واعتراف ورغبة في التوبة في حدود إمكانيتها والأب "جورمان" تحمل المسؤولية؟

– و بعد؟

– ما بعد ذلك مجرد احتمالات.. لابد وأنه كان بشأن أمر يعود بفائدة، وأن أحدهم كان مستمعًا إلى ذلك. لقد عُلم أن السيدة "دافيس" في حالة احتضار وتطالب بمقابلة أب كاهن، والباقي يأتي تباعًا. ثم بعد أن درس "كوريجان" الورقة سأل:

– لماذا توجد علامة استفهام بعد الاسمين الأخيرين؟

– لماذا توجد علامة استفهام بعد الاسمين الأخيرين؟

– ربما لم يكن الأب "جورمان" واثقًا بصحتهما.

– قد يكون "موليجان" بدلا من "كوريجان". هكذا قال الطبيب معلقًا وهو يمط شفتيه وأردف:

– لكن الاسم "دي لافونتين" فهو اسم سهل للحفظ... والاسم "باركينسون" يوجد منه الكثير، اسم شائع، و"ساندفورد" اسم غير متداول... و"هيسكيث ديبوا" منتشر جدا. بعد ذلك أمسك بدليل التليفون الموجود على المكتب مستجيبًا لدافع ما شعر به فجأة.

– "هيسكيث"، السيدة A...، "جون" وشركاؤه السباكين.. السيد "إيزيدور". آه، إننا هناك! "هيسكيث ديبوا" "ليدي" 59 ميدان إيلسيمير **S.W.1**. وليتنا نتصل بها.

– لكي نخبرها بماذا؟ أجاب الطبيب:

– سوف يأتي الإلهام. وكان "ليجين" قد رفع السماعة.

– أعطني خطًّا داخليًّا أرجوك (نظر إلى "كوريجان") أي رقم؟

– "جروسفينور" **64578**. كرر "ليجين" الرقم ومد يده بالسماعة إلى الطبيب.

– امرح، مجرد تسلية. وإذ تضايق "كوريجان" أمسك بالسماعة وانتظر. ثم سمع رنات جرس التليفون عدة مرات قبل أن تجيب سيدة لاهثة:

– هنا" جروسفينور" **64578**.

– هل أنا مع الليدي "هيسكيث ديبوا"؟

– ماذا؟ نعم... لكن...

– أيمكنني الاتصال بها من فضلك؟

– آه، لا، هذا مستحيل؛ لأنها توفيت في شهر نيسان "إبريل" الماضي.

– آه! أعاد "كوريجان" السماعة ببطء إلى الآلة دون أن يجيب على السيدة التي تسأله عن اسمه. سأل "كوريجان" "ليجين" بنبرة فاترة:

– من أجل ذلك كنت مصرًا على أن أتصل؟ حينئذٍ أظهر "ليجين" ابتسامة ماكرة وأردف:

– إننا لا نهمل شيئًا. قال "كوريجان" ساهمًا:

– في نيسان "إبريل" الماضي، أي منذ خمسة أشهر تمت في خلالها عملية مساومة أو ابتزاز بالتهديد... إن لم تكن قد انتحرت!

– لقد ماتت إثر الإصابة بورم في المخ.

– يجب علينا العودة إلى البداية. هنا تنهد "ليجين" وقال:

– ونحن لا نعلم حتى إذا كانت هناك قيمة لهذه القائمة. وقد يكون ضربه وقت الضباب قد أضعف الأمل في الحصول على الجاني. سأله الطبيب:

– هل تجد ما هو ضار إذا واصلت دراسة هذه القائمة؟

– هيًا.. أتمنى لك التوفيق.

– هذا يعني أنه من الصعب العثور على أي دليل إذا فشلت. لا تكن ثقتك قوية إلى هذا الحد. سوف أهتم بأمر هذا الـ" كوريجان" ياسيدي أو يا سيدتي أو يا آنستي مع علامة استفهام كبيرة.

الفصل الثالث

– حقًا ياسيدي، ليس لديَّ أكثر من ذلك لكي أدلي به لك. لقد سردْتُ كلَّ شيء للضابط. إنِّي أجهل من هي "السيدة" دافيس" ومن أين كانت آتية. كانت قد مكثت عندي حوالي ستة أشهر وكانت تدفع القيمة الإيجارية لحجرتها بانتظام، وفي مظهرها كانت تبدو هادئة ومحترمة. وإنِّي واثقة من عدم معرفة ما يزيد على

ذلك. ثم توقفت السيدة "كوبان" لكي تسترد أنفاسها وألقت إلى "ليجين" نظرة عتاب. ومن جانبه أظهر لها ابتسامته الرقيقة التي كثيراً ما أتت بنتائج جيدة وأضافت السيدة:

– ليس لأنِّي قد أرفض تقديم خدمة ولكن كلّما كان ذلك في إمكاني.

– شكراً وهو ما نحن في حاجة إليه. إن النساء يتمتعْنَ بسليقةٍ أكثر من الرجال بكثير. حينئذٍ تنهدت السيدة "كوبان" وقالت:

– آه! ليتها سمعتك السيدة "كوبان". كم كانت تتهمني بأني أتكلم بما أجهل، بينما كنت دائمًا على حق بنسبة تسع إلى عشر مرات

– لذلك أود أن أعرف رأيك عن السيدة "دافيس". أتعتقدين أنها كانت... تعيسة؟

– بالإجماع لا، كانت تبدو محبة للعمل، تعيش حياتها وفقًا لخطة معينة، وأعتقد أنها تعيش حياتها وفقًا لهذه الخطة، كما أعتقد أنها كانت تعمل موظفة في شركة حيث تطرق البيوت لتقدم بيانًا إلى شركتها عن الاستهلاك عامة. كانت تطرقُ الأبواب وتوجه إلى الناس أسئلة حول نوعِ صابونِ الغسيل الذي يستخدمونه أو الدقيق، أو كم من الدخل يخصصون للميزانية المنزلية. كنت من جانبي أرى في هذا التصرف نوعًا من التطفل وكثيراً ما تساءلت كيف تسمحُ الحكومةُ بذلك؟ لكنها أمور حديثة.

– وهل تعرفين اسم المكان الذي كانت تعمل فيه؟

– لا.

– هل حدث ذاتَ مرةٍ أنْ ذكرت أمامك اسم أحد أقاربها؟

– لا. تمكنت فقط من معرفة أنها أرملة منذ سنواتٍ عديدة. على ما يبدو أن زوجها كان عليلاً، ومن جانبها كانت لا تكثر من التحدث عنه.

– أما ذكرت لك ذاتَ يومٍ من أين كانت وافدة، ومن جهة أي بلد؟

– لا، أعتقد أنَّها لندنية، لابدَّ وأنها من الشمال.

– هل ساوركِ ذاتَ يوم إحساسُ بأنها تخفي شيئًا غامضًا؟ كان هذا السؤال محرجًا بالنسبة إلى السيدة "كوبان"... فأجابَتْ:

– حقا لا. على الأقل لم يبد لي شيء في طريقة حديثها على أيَّة حال. لكن هناك ما كان يدفعني إلى التفكير: في حقيبتها. بالنسبة إلى الحروف الأولى، كان قد تم استبدالها بـ "ج.و" أي "جيسي دافيس" لكنها كانت في البداية "ج "وحرفًا آخر. ربما "هـ" أو "أ" H/A . لاحظ أنه من الممكن شراء سلعٍ مستعملة بأسعار زهيدة وبالتالي العمل على تغيير الحروف. لم يكن عندها شيء كثير غير هذه الحقيبة. وكان "ليجين" على علم بهذا التفصيل. لم تكن السيدة "دافيس" تمتلك أشياء شخصية كثيرة. ولم تكن قد احتفظت بأي خطاب أو أية صورةٍ فوتوغرافية. وعلى ما يبدو أنه لم يكن لديها بطاقة تأمينية ولا دفتر شيكات. كما أنَّ ملابسها كانت بسيطة ومن نوع جيد وتقريبًا كلها جديدة.

– هل كانت تبدو سعيدة؟

– أعتقد!

– ألستِ واثقةً بذلك؟!

– إنه أمر لا يحتاج إلى التفكير. بالإجماع كانت تعيش حياتها المقدَّرة لها، وكانت لها مكانة طيبة، لكن من البديهي عندما أصيبت بالمرض....

– نعم (هنا أبدى "ليجين" اهتمامه).

– تكدَّرت كثيرًا في البداية، إذْ كانت تُردد أن المرض حطّم كل مشاريعها. لكن الإنْفلْوَنْزا هي الإنفلونزا. اضطرت المسكينةُ إلى ملازمة الفَراش. وكانت تعد الشاي لنفسها وتتناوله مع الأسبرين. اقترحت عليها استدعاء طبيب لكنها رفضت بحجة

أن الإنفلونزا تُعالَج تلقائيًّا، وعندما تحسنت حالتها قدمت لها بعض الطعام. كانت تشعر بالإحباط النفسي والهبوط البدني وهو أمر طبيعي مع انخفاض درجة حرارة الجسم. أتذكر جيداً عندما كانت تجلس ها هنا بجوار النار، وعندما قالت لي ذاتَ مرة: أتمنّى ألاّ أجد وقتًا للتفكير لأن التفكير يزعجني كثيراً. وكان "ليجين" أثناء ذلك مصغيًا إليها بانتباه والسيدة "كوبان" واصلت في حماس قائلة:

-... أعرتها بعض المجلات، لكنها كانت تبدو غير متحمسة للقراءة؛ إذ كانت هزيلة، وقالت لي وقتئذ، أتذكر ذلك جيداً:

- لو كانت الأمور تختلف عمّا ينبغي أن تكون عليه، فمن الأفضل ألاّ نعرفها، ألست من أصحاب هذا الرأي؟ وأجبتها وقتئذ "إنها حقيقية". ثم واصلت: "لست أدري... ولم أكنْ واثقة من الأمر ذات يوم" أشرت إليها بأن الأمور تسير على مايرام، لكنها أضافت:

- إن كل ما شرعت في إنجازه كان شريفًا، ولا ألوم نفسي بأي شيء. طمأنتها قائلة:

- لا بالتأكيد، غير أني تساءلْتُ إذا ما كان الشركة التجارية التي تستخدمها قد ارتكبت خطأً أو أنها غير نزيهة في الحسابات مثلاً، ومن جانبها- حتى لو كانت على علم- قالت إنّ الأمر لا يهمها. وأيد "ليجين" الفكرة قائلاً:

- ممكن.

- على أي حال، لقد استردت صحتها أو على الأقل كادت أن تستردها وعادت إلى عملها. ولما نصحتها بألاّ تتعجل وأن تستريح يومين آخرين- وكنت على حق- رفضت. وعادت في اليوم التالي ودرجة حرارتها مرتفعة جدا. صعدت السلم بكل صعوبة. ومرة أخرى رفضت الطبيب، فما كان من حالتها الصحيّة إلاّ أن ساءت أكثر فأكثر. وفي اليوم التالي قالت لي:

– إنِّي في حاجة إلى مقابلة أبٍ كاهن وبسرعةٍ قبلَ فواتِ الأوانِ" ثم حددت أن يكون كاثوليكيًّا ، وفي الحال أرسلت الصغير "ميك" لاستدعاء الأب "جورمان" . ثم اتصلت هاتفيا بالطبيب وبالمستشفى.

– هل قمتِ باستقبال الكاهن عند وصوله؟

– نعم، لكنني تركتهما معًا على انفراد.

– ماذا كان حديثهما؟

– لست أدري بالضبط. لكن في أثناء غلقي للباب سمعتها تتحدث عن الفساد وكذلك عن حصان... ربما يكون حصان سباق...

❖❖❖❖❖

ولم تكن هناك حاجة إلى معلومات أخرى تؤخذ من المستأجرين الثلاثة الآخرين. أحدهما موظف بنك والثاني يعمل في محل أحذية، كانا يسكنان في المكان نفسه منذ سنواتٍ عديدة. أمّا الثالث فكانت فتاة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، وصلت إلى هذا المكان منذ فترة وجيزة، وهي تعمل في محل كبير بالحي. والثلاثة كانوا لا يعرفون السيدة "دافيس" معرفة جيدة. أمّا بالنسبة إلى السيدة التي أعلنت أنها رأت الأب "جورمان" في الشارع ليلة الجريمة، فقد لمحته فقط في أثناء دخوله عند "توني" حوالي الساعة الثامنة إلاّ عشر دقائق هذا كل ما في الأمر. السيد "أسبورن" مالك الصيدلية الموجودة عند ناصية شارع "بارتون " أدلى بما هو أفضل. كان هذا الشخص قصير القامة، متوسط العمر، أصلع، ذا وجه مستدير، يضعُ نظّارة على عينيه، تقدم قائلاً:

– مساء الخير يا سيدي المقرر. ليتنا ندخل إلى الخلف. قال هذا وهو يرفع الحاجز الأمامي حسب النظام القديم. تبعه "ليجين" إلى مكان فيه شاب يرتدي سترة بيضاء ويقوم بتعبئة قنينات. ومن بعدها دخل إلى حجرة بها مقعدان بمساند ومنضدة

صغيرة ومكتب. ثم قام "أسبورن" بشد الستر الذي يغلق الباب وجلس وأشار إلى "ليجين" أن يجلس مثله. وبدأ الشاهد أقواله بالآتي:

- أعتقد أنه في إمكاني معاونتكم. كان الطقس رديئًا والبائعة كانت أمام الخزانة، ومن عادتنا ألاّ نغلق يوم الخميس قبل الساعة الثامنة مساءً. كان الضباب كثيفًا ولم يكن بالمكان أناس كثيرون. كنت في هذه الأثناء أمام الباب، أفكر في التقلبات الجوية وتأخرت وأنا على هذا الوضع لأنَّ البائعة لم تكن في حاجة إليَّ لبيع كريمات أو أية مستحضرات تجميل أخرى وخلافه من هذه الأنواع التي لا تحتاج فيها إلى الصيدلي. ثم شاهدت الأب "جورمان" وهو على الجانب المقابل من الشارع. إني أعرفه معرفة جيدة عندما أراه. يا لفظاعة هذا الاغتيال! يعتدون على رجل مثله! وحدثت نفسي حينئذ: (إنه الأب "جورمان") كان متجهًا نحو "ويست ستريت" وهو أول شارع على اليسار قبل السكة الحديد. ومن خلفه رجل آخر. توقف هذا الأخير فجأة. تساءلت لماذا توقف هذا الشخص؟ وإذا بي ألاحظ أن الأب "جورمان" بدأ يتباطأ في مسيرته، إذ كان يبدو غارقًا في التفكير. ثم واصل طريقه بخطى واسعة والشخص الآخر عمل مثله. حدثت نفسي قائلاً: "لا بُدَّ وأنه يعرفه ويرغب في أن يلحق به لكي يحدثه عن أمر مهم".

- هل اكتفى بتتبعه؟

- في هذه اللحظات لم أفكر في الأمر، لكن حاليًّا فإنني واثق بذلك. ثم غابا عن نظري بسبب كثافة الضباب.

- هل في إمكانك وصف هذا الرجل؟ قال:

- نعم أعتقد... إنه شخص طويل.

- طويل؟ كم طوله تقريبًا؟

- ربما كان مترًا وثمانين سنتيمترًا.. كانت نحافته تظهره أطول من ذلك. وكتفاه

مرتخيان، وعنده تفاحة آدم ظاهرة، كما كان شعره الرمادي يظهر من تحت قبعته. وما كان واضحًا في ملامحه هو أنفه الأشبه بمنقار طائر. ومن البديهي أنه كان يصعب عليَّ تحديد لون عينيه. قد يكون في الخمسين من عمره، عرفت ذلك من طريقة سيره، إذ لم تكن لشاب. دُهش "ليجين" عندما قدَّر بذهنه المسافة التي تفصل بين الصيدلية والرصيف المواجه لها. قد يكون الوصف الذي قام به هذا الصيدلي ثمرة خيال واسع، وهو غير منتصر لمثل هذه النماذج. غير أن الناس- عامة- ينسجون شخصية المجرم وفقًا لنموذج معين، كأن تكون نظراته شرسة وشعره غير منسق... إلخ لكن الوصف الذي أشار إليه السيد "أسبورن" ينطبق على شخص عادي. ربما كان شاهداً مثاليًّا ومراقبًا ممتازاً... لكن المسافة كبيرة. سأله "ليجين":

- أفي وسعك التعرف على هذا الشخص إذا شاهدته مرة أخرى؟ أجابه بكل ثقة:

- آه، نعم، بالتأكيد. إنني لا أنسى أبداً الوجه الذي أراه، وكثيراً ما رددت أنه إذا أتاني سفاح لكي يشتري مني زرنيخا، فسوف أقدمه فوراً للمحكمة ولم أفقد هذا الأمل حتى الآن.

- ألم يحدث، لك ذلك قطُّ؟ أجاب "أسبورن" في مرارة:

- نعم.. لم يحدث وحاليا الفرصة ضعيفة؛ لأنيّ حاليًّا أعمل على بيع الصيدلية والذهاب إلى "بورنماوث".

- يبدو لي أنك صاحب شأن هنا. قال "أسبورن" معترفًا في اعتزاز:

- الأسرة تقطن هنا منذ قرن من الزمان. ولقد سبقني جدّي ووالدي، وكسائر الصبية الذين في مثل سني كنت عاشقًا للمسرح. كنت مقتنعًا بدوري كممثل. لم يسع والدي إلى حرماني من هذه الهواية قال لي ذات يوم:

– انظر إلى ما تقدر أن تقوم به يا ولدي. سوف تتحقق من أنك لا تشبه "هنري إرفينج" من أيّ جانب. وكان على حق؛ لأني تراجعت بعد ثمانية عشر شهرًا واهتممت بهذا المشروع. ولقد ازدهرت تجارتنا، لكن في أيامنا هذه (هز رأسه) الوضع مخز بالنسبة إلى الصيدلي، هذا لأن جميع السلع المتعلقة بالزينة تأتينا عن طريق مثل هذه الدناءة والتي تقوم بهذه المهمة هي البائعة التي تعمل عندي، لكنيّ بصفتي صيدليًّا لم أعتد ذلك قطُّ. ومهما كان الوضع، لقد ادخرت مبلغًا كبيرًا وحصلت على مبلغ كبير من هذا المحل، وقمت بشراء فيلاّ ظريفة بجوار "بورنماوث" . على المرء أن يعرف كيف يتصرف مادام في إمكانه التمتع بالحياة. عندي الكثير من وسائل التسلية: الفراشات والعصافير وفلاحة البساتين. وللعلم عندي كمية من الكتب خاصة بفلاحة البساتين هناك، كذلك الأسفار، وسوف أقوم برحلة بحرية... سأتوجه إلى الخارج قبل فوات الأوان. حينئذ نهض "ليجين" وقال:

– أتمنى لك حظًّا سعيداً. إذا صادفت هذا الشخص قبل مغادرتك لهذه المنطقة...

– سوف أوافيك بأي معلومات على الفور. ضعْ ثقتك فيَّ واعتمد عليّ؛ لأن لي في ذلك متعة. ضعْ ثقتك فيَّ.

الفصل الرابع

كنت مع صديقتي "هرميا ريد كليف" عندما خرجت من (أولد فيك) حيث حضرنا مسرحية لـ "ماكبث" . وكان المطر يتساقط بغزارة. أسرعنا إلى المكان الذي كانت فيه سيارتي. وجاءت ملاحظة "هرميا" (وهي غير صحيحة) بأنها تمطر دائماً عند الخروج من "أولد فيك" وفي الطريق سألتني صديقتي:

– هل سنتناول إفطارنا في "دوفر"؟

– "دوفر".. يا لها من فكرة عجيبة! أعتقد أننا كنا سنتوجه إلى "فانتيزي". إننا في حاجة إلى طعام جيد ومشروب جيد أيضًا بعد هذه المشاهد الدامية والمظلمة. إنّ "شكسبير" يقوم بدور فاتح الشهية دائما.

– بالضبط. و"واجنز" له التأثير نفسه فيَّ، ولقد ذكرت "دوفر" لأنك على نفس الاتجاه ولأنَّ الطريق اتجاه واحد.

– ممكن، لكنك تدورين حول نفسك. وكانت "هرميا" دائمًا على حق. "هرميا" فتاة جميلة تبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا. لها بروفيل (الوجه من الجانب) يوناني. وشعرها كثيف لونه كستنائي غامق، معقود على هيئة شينيون على عنقها. وكانت أختي لا تذكره– أي الشعر– إلاّ بقولها: (مثل صديقة "مارك") وبنغمة تؤثر في أعصابي وتثيرني. وفي مطعم "فانتيزي" استُقبلنا بحرارة، وأشاروا لنا إلى مائدة صغيرة مستندة إلى الحائط، ومغطاة بفرش من القطيفة. وكانت لمطعم "فانتيزى" شهرة كبيرة، لذلك كان عدد الزبائن لا يُحصى والموائد تكاد تكون متلاصقة. عندما جلسنا، قدم لنا جيراننا تحيةً حارة: "ديفيد آردينجلي" أستاذ التاريخ في "أوكسفورد" وإحدى صديقاته الشابات. وكانت رائعة الجمال وتسريحة شعرها آخر صيحة وشعرها مجعد ولكنه لم يعمل على تشويه جمالها. كانت تتمتع بعينين واسعتين وفمها دائمًا مفتوح قليلاً. واضح أنها غبية، وكان "ديفيد" – وهو خارق الذكاء– لا يجد راحته إلاّ بالقرب من الفتيات الساذجات أو ذواتي الإدراك الضعيف. قال لنا:

– ها هي محظيتي "بوبي". أقدم لكِ "مارك" و"هرميا". إنهما من المفكرين، حاولي أن تكوني في مستواهما.... أراهن أنكما كنتما منذ قليل تشاهدان "شكسبير" أو "إيبسن" أليس كذلك؟ قالت "هرميا":

– بالضبط في "أولدفيك" .كانت الإضاءة ممتازة وكان المشهد ممتازًا(مشهد الوليمة).

– والساحرات.

– بشعات كالمعتاد. قلت:

– كنت بالضبط أفكر في تأثير الشر، في الليلة السابقة.

– بخصوص.

– آه كنت وقتئذ في مقهى في "شيلسي".

– حسنًا يا "مارك" .. إنَّك حقا من يعيشُ عصره." شيلسي" حيث تتواجد فتيات متنكرات في شكل فئران الفندق يتزوجْن من فتيان سوء نفعيين(وصوليين). هناك يليقُ بـ"بوبي" أن تتواجد. أليس كذلك يامحبوبتي؟ فتحت الفتاة عينيها الواسعتين وقالت معترضة:

– لا .. إنِّي أمقت هذا المكان وأفضل"فانتيزي"؛ لأنه مكان جميل وفيه نتناول طعامًا فاخرًا.

– حسنًا يا"بوبي" مع كلٍّ إنَّك لستِ ثريَّةً بالقدر الكافي للذهاب إلى" شيلسي". حدثني عن" ماكبث" وعن الساحرات البشعات يا"مارك". أمّا عني لو أنني أخرجت هذا المشهد لعهدت بهذا الدور إلى السيدات المسنّات الخبيثات مثل ساحرات القرية. أردفت"بوبي":

– لكن لقد اختفى ذلك حاليا.

– تعتقدين ذلك لأنكِ لندنية.مازال في كل قرية إنجليزية ساحرة. توجد السيدة "بلاك" العجوز، وهي تسكن ثالث منزل أعلى الهضبة. والناس عامة يوصون الأطفال بألا يزعجوها. ويعطوها البيض والفطائر والجاتوه. ومن يزعجها أو يعترض طريقها يجف لبن بقرته والبطاطس لا تنمو في أرضه أو أن الصغير"جوني" يصاب

بالتــواء في القــدم. ولا يتكلم أحــد عن ذلك، ولكن الكل يعــرفــه تمامًــا.

صاحت "بوبي" :

– إنَّك تمزح.

– على الإطلاق. أليس كذلك يا "مارك" ؟

– بلا شك، إنك على حق.. نطقتُ بذلك بصوت منخفض لكني لا أعرف شيئًا مـحــددًا عن هذه المعلومـات؛ لأنـي لم أسكنْ الريف أبدًا. وهنا أبدت "هرمــيـا" ملاحظتها قائلةً :

– يدهشني أنك تجعل السيدات المسنّات العاديات يقمن بدور الساحرات. هذا الدور في حاجة إلى شخصيّة خارقة.

– لكنه جنونٌ؛ لأن الشخص يهيج فجأةً ويبدو بشعر منكوش مختلط بالقش، وأخيرًا يعمل كل ما في وسعه لكي يظهر مجنونًا ولكن في ذلك ما يفزع. لكني أتذكر أني تواجدت ذاتَ مرةٍ في قاعة انتظار في أحد بيوت المسنات، مع سيدة عجوز تشرب كوبًا من الحليب (اللبن). أبدت بعض الملاحظات بخصوص حالة الطقسِ. ثم مالت عليَّ فجأةً وسألتني :

– هل هو ابنك المسكين الذي كُفِّن خلف المدفأة؟" ثم حكت رأسها وقالت :

– الساعة الثانية عشرة ظهرًا كل يوم في هذه الساعة تظاهر بأنك لا ترى الدم" وحينئذٍ سرت في ظهري قشعريرة بسبب لهجتها التي كانت تبدو طبيعيةً تمامًا.

سألت "بوبي" قلقة :

– وهل كان هناك حقا شخص تمّ تكفينه خلف المدفأة؟ لم يجبها "ديفيد" وواصل حديثه :

– .... الوسطاء مثلاً. غرفة مظلمة وسيدة ثائرة وأصوات طقطقةٍ وضربات على الجدران. بعد ذلك ينتصب الوسيط ويربت شعره ثم يعود إلى مقره لتناول وجبه

كاملة كسائر الناس. وجاء حينئذ تعليقي:

- إذن قد تكون ساحراتكم ثلاث مسنات موهوبات يمارسن فنّهن سرًّا، متمتمات بتعاويذ حول وعاء به ماء يغلي أو شيء مغلي، يستحلفن الأرواح، وفي الوقت ذاته يبقين في صورة طبيعية. نعم.... مثل هذا المشهد قد يكون مؤثراً.

أردفت "هرميا" بنبرة جافة:

- هذا إذا وجدْتَ الممثلين الموهوبين للتمثيل على هذا النحو. أيد "ديفيد" كلامها بقوله:

- لقد ضربت على الوتر الحساس. يشبه ما يحدث مع الجنون بالنسبة إلى الممثل عندما يُطلب منه أن يمثّل الموت الفجائي. لكن ليس هناك ممثل يقبل أن يموت في هدوء، إذ إنه لابد من أن يتلوّى وأن يظهر بياض عينيه وأن يشهق أو يحشرج وأن تتقلص رئتاه وأن يمسك رأسه بيديه وأخيراً يظهر مشهد الموت. قلت:

- لاشك في أن "شكسبير" سوف يفاجأ إذا شاهد أسلوب التمثيل حاليا.

سألته "بوبي":

- أليس "باكون" هو الذي كتب قصص "شكسبير"؟ أردف "ديفيد" في هدوء:

- لقد تخلوا عن هذه النظرية. وأنتِ ماذا تعرفين عن "باكون"؟ أجابت "بوبي" منتصرة:

- إنه مخترع البارود. فما كان من "ديفيد" إلا أنه ألقى إلينا بنظرة.

- الآن هل فهمتم لماذا أحب هذه الفتاة؟ لأنّها تعرف العديد من الأمور المدهشة. "فرانسيس باكون" يا عزيزتي وليس "روجيه". قد يكون ذلك مناسبا في هذا الزمان أن يُشار إلى سفاح متخصص عندما تعهدين إليه بعمل بسيط، وقد يكون مزاحًا في يومنا هذا. اعترضت "هرميا":

- لكن هذا مازال قائمًا. هناك عصابات في "شيكاغو"، أليس كذلك؟

– كلا، إن كنت أفكر فإني أفكر في أولئك الذين يحلمون بالتخلص من شخص ما مثل المنافس المزعج أو العمة "إميلي" – الثرية المتمسكة بالحياة أو الزوج المسيطر. ماذا لو كان في وسع الناس الاتصال هاتفيا بأحد المحلات الكبرى وطلب الآتي: "أرسل إليَّ سفاحين من نوع جيد". ضحكنا كلنا. قالت "بوبي":

– من الممكن تنفيذ ذلك. التفتنا كلنا نحوها. وسألها "ديفيد":

– وبأي طريقة يامحبوبتي؟

– أقصد أنه في الإمكان تنفيذ ذلك عند اللزوم بواسطة أناس مثلنا. لكن مثل هذا الأمر مكلف جدا. وكانت– في هذه الأثناء– عينا الفتاة مفتوحتين، وكانت شفتاها مفتوحتين إلى النصف، غير أنَّ الدهشة تملكت "ديفيد". سألها:

–ماذا تقصدين؟ بدا الضيق على "بوبي".

–آه، لابد وأني لا أُجيد الفهم. كنت أتكلم عن "الحصان الشاحب" وما بعد ذلك.

– "الحصان الشاحب"؟ أي نوع هذا "الحصان الشاحب"؟ علت الحمرة وجه "بوبي" واخفضت جفنيها. ثم قالت:

– أنا غبيَّة، لقد سمعت مثل هذا الأمر ذات يوم من قبل.... ولاشك في أني أفهم جيداً. قال لها "ديفيد" في وداعة:

– خذي، اشربي قدراً يسيراً.



من الطريف أن نلاحظ أنه عندما نسمع عن شيء ما غير معتاد، نعمل على ذكره بعد أربع وعشرين ساعة، ولقد كان لي الدليل على ذلك في اليوم التالي. سمعت رنات التليفون فرفعت السماعة:

– فلاكسـمـان 73841 .ثم رن في أذني صـوت أشبـه بـالزغطة ومن بعـده صـوت شخص لاهث لكنه يحتوي على شيء من التحدي:

– لقد فكرت وسأذهب. أجبت:

– رائع.... هل... وإذا بالصوت يواصل:

– الصاعقة لا تصيب المكان مرتين.

– هل أنتِ واثقة بالرقم الذي ترغبين الاتصال بصاحبه؟

– من البديهي. أنت "مارك إستربروك" أليس كذلك؟

– آه.. السيدة "أوليفييه"؟

– ألم تعرف صوتي؟ إنه بشأن حفل "رودا". سأذهب إليه لتوقيع مؤلفاتي.

– لمحة طيبـة من جانبك. وطبعًا سوف تقيـمين عندها. أبدت السـيدة "أوليـفييـه" قلقها وقالت:

– ألا يوجـد حـفل اسـتـقبـال؟ إنك خـير من يعلم: الناس تـتزاحـم عليك لسؤالك عما تكتب حتى لو كان عصير الطماطم بيدك ترتشفه. ومن جانبي أنا لا أجد أبداً الرد المناسب. هل تـصـدق أنهـم سـوف يصطحبونني لتناول شيـئًا ما في (الحـصـان الوردي)؟

– الحصان الوردي؟

– آه.. أقصـد "الحـصـان الشـاحب". إنَّه مـشرب لا أشـعر فـيه بالارتيـاح. هناك أستطيع تناول الشراب، لكنه يسبب لي انتفاخًا.

– لماذا تتحدثين عن الحصان الشاحب؟

– يوجـد مـشرب بهـذا الاسم عند الناصـيـة. هذا إذا كـان يوجـد فعلاً "الحـصـان الوردي"، وأن هذا الاسم موجود في مكان آخر في هذه الحالة أكون قد اخـتـرعتـه؛ لأن خيالي واسع.سألت:

– كيف حال الببغاء؟

– الببغاء؟

– وكرة الـ " كروكيه"؟ أجابت السيدة"أوليفييه" في هدوء:

– إنكَ حقا مجنون أو إنكَ مصاب بألم في شعرك.. "خيول وردية"وببغاوات وكرات" كروكيه" . ثم أخفضت سماعة التليفون. بينما كنت أفكر في فكرة "الحصان الشاحب" إذا بجرس التليفون يرن من جديد. كان الأمر يتعلق هذه المرة بالسيد" سوان وايت" وهو موثق محترم. لقد كان يتصل بي بشأن وصية الليدي "هيسكيث ديبوا" حيث كان لي الحق في اختيار ثلاث لوحات من لوحاتها وفقًا لما جاء بوصيتها. قال:

– بيع ممتلكات الفقيدة سيتم في "لندن" ، وإذا رغبت في الحصول على شيء ما ففي إمكانك التوجه إلى"إليسمير سكوير" في أقرب فرصة.

– سأتوجه إلى هناك فوراً.

كانت الفترة الصباحية تبدو لي غير نافعة للعمل.

❖❖❖❖❖

وضعت اللوحات الثلاث تحت ذراعي وخرجت من 49"إليسمير سكوير" وإذا بي أرتطم بشخص كان يرتقي السلم. أسرعت بتقديم الاعتذار. وفي اللحظة التي هممت فيها لطلب سيارة أجرة، ساورني إحساس جعلني ألتفت لأجد أمامي"كوريجان" . بادرته بقولي:

– آه. إنه أنت يا"كوريجان"؟

– نعم يا"مارك إستربروك" . وكنا– "جيم كوريجان" وأنا– زميلين في الدراسة في" أوكسفورد" لكننا لم نتقابل طوال فترة وصلت إلى خمسة عشر عامًا. قال:

– بدا لي في بدء الأمر أني أعرفك. غير أنِّي تساءلت أين سبق لي أن قابلتك.

لقد قرأت مقالاتك وأعجبتني.

- كيف أصبحت؟ ترى هل كرست حياتك للأبحاث كما كنت ترغب؟ لقد كانت أمنيتك في الحياة، أليس كذلك؟ أطلق "كوريجان" زفيراً وقال:

- وا أسفاه!. مثل هذا العمل مكلّف جدا عندما يقوم به شخص بمفرده، إذ ينبغي إعداد فريق عمل مع شخص مليونير. وبالنسبة إلى النظريات التي كم كلفتني الكثير مثل تأثير إفرازات الغدد على تصرفات الشخص، لم أجد من يهتم بها، كما أني طبيب شرعي، وهو فرع شيق جدا، يتيح لنا فرصة لقاء جميع المجرمين.... لكن دعنا من ذلك، أتريد تناول الغداء معي؟

- بكل سرور. لكنك كنت داخلاً إلى هنا. قلت له هذا مشيراً إلى المنزل.

- ليس بالضبط. أتيت إلى هنا من باب الفضول.

- لا يوجد هنا سوى الحارس.

- نعم. إنما هدفي كان الحصول على معلومات بشأن الليدي "هيسكيث ديبوا".

- في إمكاني موافاتك بمعلومات أوفر من تلك التي ستحصل عليها من الحارسة. الليدي "هيسكيث" كانت إشبينتي.

- يالمحاسن المصادفات! أين سنتناول غداءنا إذن، أعرف مطعماً ليس بعيداً عن هنا. وماهي إلاّ دقائق وإذا بنا أمام مائدة، ويقوم بخدمتنا نادل متنكّر في زي بحّار فرنسي.. بادرته بسؤالي له:

- إذن ما الذي كنت ترغب في معرفته عن السيدة العجوز؟ وما هو سبب اهتمامك بها؟

- إنّه موضوع طويل. أولاً أخبرني أي نوع من النساء كانت؟ فكرت برهة ثم قلت:

- كانت أرملة محافظة ولست أدري لأي جزيرة تتبع. كانت ثريّة وتحب البذخ

إذ كانت تقضي الشتاء في الخارج. ومنزلها يزخر بأثاث فاخر ويجمع أنواع الفضيات. لم تنجب، لكن عندها زوج من كلاب الكانيش كانت تحبهما، وتحرص على رعايتهما. كما كانت عنيدة، وإن كانت كريمة،إلاَّ أنها كانت تميل إلى السيطرة . ماذا تريد أن تعرف أكثر من ذلك؟

– لست أدري بالضبط. . تُرى هل ذهبت ضحية عملية ابتزاز؟ فتعجبت دهشًا:

– هي! الأمر بالنسبة إليَّ غير واضح بالمرة... وهكذا علمت ظروف وفاة الأب "جورمان" . وضعت الشوكة التي بيدي وسألته:

– هل معك الآن قائمة الأسماء؟

– ليست الأصل، إنما صورة قمت بنقلها. أمسكت بالورقة التي ناولها لي لكي أدرسها.

– "باركينسون" . . أعرف منهم اثنين "آرثير" وهو في البحرية و "هنري" وهو يعمل بإحدى الوزارات. "أوميرود" . . يوجد قائد بهذا الاسم في حرس الخيّالة. "ساندفورد" . . هذا كان اسم مدير مدرستنا عندما كنت طفلاً. "هارموندز ورث" . . لا. " توكيرتون" .... "توكيرتون" ... "توماسينا توكيرتون" ؟ وألقى إليَّ "كوريجان" نظرة فضول.

– لكي أتمكن من المعرفة.. ومن هي؟ وماذا تفعل؟

– لاشيء حاليا. لقد أعلنت الصحيفة نبأ وفاتها منذ أسبوع.

– هذه المعلومة لا تفيدني كثيراً. وواصلت القراءة: "شاو" . . أعرف طبيب أسنان بهذا الاسم وهناك كذلك "جيروم شاو" . من هيئة المحامين. "دي لافونتين" ....سمعت هذا الاسم مؤخراً، لكني لا أتذكر أين سمعته يا "كوريجان" . هل تكون أتت مثلاً بالمصادفة؟

– أتعشَّم أن يكون لا؛ لأني أشعر بأن الظهور في هذه القائمة ينبئ بالضرر.

– ربما، لكن ما الذي يدفعك إلى هذا الاعتقاد؟ هل هناك قصة ابتزاز كأساس للموضوع؟

– إنها مجرد فكرة للمراقب "ليجين" ، هكذا يبدو لي. من الممكن أن يكونوا جماعة من الأغبياء أو ممن يتعاطون المخدرات، أو أنهم رقباء سريّون. يوجد أمر أكيد: لهذه القائمة قيمة لكي يتم القتل ثم الاستيلاء عليها.

– إنك دائمًا تهتم بالجانب البوليسي وهذا لطبيعة عملك. أليس كذلك؟ هزّ رأسه.

– إنيّ عاجز عن التحديد.، وما أركز عليه هو شخصية الجاني: نشأته ودراسته وخاصة حالته الذهنية.

– إذن لمَ الاهتمام بهذه القائمة؟ أجاب "كوريجان" :

– إني أتساءل أنا أيضًا. قد يكون وجود اسمي ضمن قائمة الأسماء، وآل "كوريجان" دائمًا في خدمة ونجدة المظلوم.

– تلك القائمة في نظرك قائمة الضحايا.... وليست قائمة الجناة.... ومع ذلك قد يكون هذا ممكنًا.

– إنك فعلاً على حق، واقتناعي يبدو غريبًا، قد يكون بالسليقة. أنا لا أعرف الأب "جورمان" معرفة جيدة، ومع ذلك أراني مقتنعًا بأنه كان يولي هذه القائمة اهتمامًا خاصا.

– وما دور الشرطة في الموضوع؟

– لقد تدخلت والموضوع في حاجة إلى وقت، إذ ينبغي دراسة الأمور بالتفصيل خاصة ماضي السيدة والأمر الذي دفعها إلى طلب الكاهن قبل الوفاة.

–ومن كانت هذه السيدة؟

–أرملة تبدو عجيبة لأول وهلة. كانت تعمل مع إحدى المؤسسات التي تُجري

بحثًا عن عادات المستهلكين والمنتجات الاستهلاكية الأكثر شيوعًا. ليس هنا ما يثير شبهة في هذه الناحية. ومع ذلك من كانت تعمل معهم لا يعرفون عنها الكثير. كانت وافدة من "لانكاشير" . هناك تفصيل واحد بشأنها وهو: ما كانت تمتلكه من أعمال شخصية كان ضئيلاً جدا؟

– لكن الأمر لا يدعو لمثل هذا الاهتمام. وأراك مهتمًّا له جدا.

– نعم مازلت أفكر. "هيسكيث ديبوا" اسم غير شائع لذلك فكرت في الحصول على بعض المعلومات عن السيدة العجوز.... لكن– حسب رأيك– قد لا يقودني ذلك إلى دليل قاطع. وأكدت له:

– لم تكن لها أيّة صلة لا بتجارة المخدرات ولا بتعاطيها، كما أنها ليست بوليسًا سريًّا وكانت حياتها في غاية الاستقامة وليس لديها ما يدعو لابتزازها. والآن أتساءل لماذا اسمها موجود في هذه القائمة؟ مجوهراتها كانت مودعة في خزانة البنك ولم يكن في منزلها ما يدفع لصًّا إلى السطو عليه.

– هل هناك أفراد آخرون من آل "هيسكيث ديبوا" ؟

– ليس لها أبناء، وأعتقد أن لها ابن أخ وابنة أخ لا يحملون نفس اللقب، وزوجها كان وحيداً. حينئذ أكد لي "كوريجان" – وإن كنت غير مقتنع – بأني أفدته كثيراً وإثر ذلك تفرقنا. عدت إلى منزلي ساهمًا، عاجزاً عن التركيز في عملي، ونهضت مستجيباً لدافع داخلي بأن أتصل بـ"ديفيد آردينجلي" هاتفيًّا.

– "ديفيد" ؟ أنا "مارك" . أخبرني.. ما اسم الفتاة بالضبط التي كانت معك؟ "بوبي" ؟

– وبعد، أتريد أن تأخذ مني صديقتي الصغيرة؟ بدت له الفكرة عجيبة!

– لديك الكثير من الفتيات، اترك لي واحدة.

– كنت أظنك مكتفيًا بما عندك من فتيات وأنك ضمن صفوف السيارات:

– ما هذا التعبير المنفِّر، ومع كلٍّ فإن علاقتي بـ"هرميا" لا تزعجني لأني من المزمع أن أتزوجها ذات يوم. إني فضلتها على جميع الفتيات؛ لأننا متشابهان في نواحي عديدة، وتقريبًا لنا نفس الميول. لكن لماذا هذا الإحساس بالرغبة في التثاؤب؟"هرميا"صديقتك النموذجية. لكن هذه الجملة جرحت إحساسي سألني"ديفيد":

– هل أنتِ نائم؟

– لا، إنما أرى حقا أن صديقتك" بوبي" ممتعة جدا.

– وهو فعلاً التعبير المناسب لها. اسمها"باميلاسترلينج" وهي تعمل في محل زهور"ألترا– شيك" في"مايفير". وأعطاني العنوان، قائلاً بنبرة أبوية:

– اخرج معها، سوف تجد راحتك وستجد أنها لاتعي شيئًا، وسوف تصدق كلَّ ما ستقوله، لها لكن لا تجعل لنفسك آمالاً.إنها تقيْة جدا. اخفضت سماعة التليفون.

❖❖❖❖❖❖

اجتزت باب"آرفلورو" (الفنون المتعلقة بالزهور) في شيء من العصبية. جذبتني رائحة" الجارونيا". جميع العاملات بمحل الزهور وهن في زي بلونٍ أخضر فاتح يشبهن" بوبي" لذلك وجدت صعوبة في التعرف عليها. ذكَّرتها بنفسي:

– لقد تقابلنا مساء أمس مع"ديفيد آردينجلي". تذكرت"بوبي" وأجابت:

– آه،نعم.

– أريد منك معرفة شيء ما(فجأة شعرت بالحرج). أمن الأفضل أن أشتري زهوراً؟ في الحال تحركت وكأنها تعمل بطريقة آلية. قالت:

– لدينا زهور جميلة جدا. لقد وصلت لتوّها.

– وما سعرها؟ أجابت"بوبي" بنبرة إقناع:

– إنها زهيدة الثمن، خمسة شلنات فقط للواحدة. ابتلعت لعابي وقلت لها.

– أعطني ست زهرات.

– وهل أضيف إليها هذه الأوراق الخضراء الرائعة؟ وفي أثناء ما كانت "بوبي" تقوم بتغليف الزهور، كررت لها سؤالي:

–أريد أن أوجه إليك سؤالاً يا "بوبي" .لقد ذكرت في المساء في أثناء حديثك "الحصان الشاحب" . حينئذٍ انتفضت الفتاة وسقطت الزهور منها على الأرض.

– أفي إمكانك منحي مزيداً من التفاصيل عنه؟ جمعت "بوبي" الزهور. سألتْ وهي تنهض:

– ماذا قلت؟

– سألتك بشأن ا"لحصان الشاحب" .

– "حصان شاحب" . أنا لا أفهم شيئًا!

– لقد ذكرتِ ذلك مساء أمس.

– أبداً.أنا واثقة بذلك.

– هل حدثك عنه أحدهم مثلاً. ومن هو؟تنفست "بوبي" بقوة وتحدّثت بسرعة:

– أنا لا أفهم كلمة مما تقول، وليس لنا الحق في الثرثرة مع الزبائن. قالت هذا ولصقت ورقة على الزهور التي اشتريتها وقالت:

– " خمسة وثلاثون شلنًا من فضلك. أعطيتها ورقة مالية ذات الجنيه. ووضعت لي على كفي في جفاء ستة شلنات والتفتت في حرارة إلى زبون آخر. وكانت يداها ترتجفان. خرجت ببطء، وعندما ابتعدت قليلاً اكتشفت بأنها أخطأت في الحساب وأعادت لي أكثر مما لي. لقد شاهدت مرة أخرى في هذا الوجه الجميل غير المعبر والعينين الزرقاوين اللتين أظهرتهما– في هذا المساء– شيئًا ما. لقد بدت خائفة.. خائفة جدا.لكن لماذا؟

الفصل الخامس

أطلقت السيدة" أوليفييه" زفيرًا وقالت:

– يا له من ارتياح لمجرد التفكير في أن الأمور كلها انتهت ولم يحدثْ شيء. وأخيرًا سيكون الاسترخاء. ولم يتسبب الحفل الذي أقامته"رودا" في أي استثناء للقاعدة. كان الطقس في بداية الفترة الصباحية متقلبًا وبالتالي أثار قلقًا كبيرًا. أين توضع الموائد؟ هل في الهواء الطلق؟ أم بالدخل؟ وأين سيُقدم الشاي؟ كانت"رودا" – بحاستها الطبيعية– قد تمكنت من حل كل هذه المشاكل. بالنسبة إلى الكلاب فقد حبسوها في المنزل من باب الاحتياط غير أنها وجدت فرصة للهرب وتواجدت في الحفل، ولقد نجحت الصغيرة الجذّابة المكلفة بافتتاح الحفل في مجاملة الحاضرين ببضع عبارات مؤثرة، بينما كان الغرض من الحفل هو تلقّي المساعدات لترميم برج جرس الكنيسة .وأخيرًا، عندما أقبل المساء، اجتمعنا كلنا للتعليق على أحداث اليوم. ابنة عمي"رودا" وزوجها الكولونيل"ديسبارد" والآنسة"ماكاليستير" وهي سيدة ذات شعر أحمر الملقبة بـ"جينجر" والسيدة"أوليفييه" والحبر"كاليب دان كالتروب" وزوجته. وكان الحبر رجلاً مسنا طريفًا يُسرُّ كثيرًا لسرد الكلاسيكيات في كل مناسبة، وكانت السيدة"دان كالتروب" تبدو ساهمة تلقي بنظراتها إلى"أوليفييه"وفجأة سألتها:

– ماذا كنتِ تتوقعين حدوثه في الحفل؟

– على سبيل المثال.... اغتيال.

– ولأي سبب؟

– في الواقع بلا أسباب. قد يكون غير محتمل أو أمرًا لا يصدق، غير أنه قد تمَّ ارتكاب جريمة اغتيال في آخر حفل حضرته، وكان الحبر الجليل قد أعطانا مثالاً

يونانيًّا. وقال "ديسبارد" معلقًا:

– كانت لمحة طيبة من العجوز "لوج" عندما أرسل إلينا دستتين من زجاجات الشراب من "آرم رويال". قلت:

– الـ"آرم ريال"؟ ووضحت لي "رودا" في الحال:

– إنه اسم أوبرج. توجهت إلى السيدة "أوليفييه" بالسؤال:

– وألا يوجد غيره؟ أعتقد أني سمعتك تقولين "الحصان الشاحب". لم أحصل على ردّ أو أي ردَ فعل سوى نظراتٍ لا مبالاة. ثم أردفت "رودا":

– الـ"شيفال بال" أي (الحصان الشاحب) ليس أوبرج أو على الأقل لم يعد أوبرج. وواصل "ديسبارد":

– نعم، لقد حوِّل إلى مبنى سكني يرجع إلى القرن السادس عشر. وأتساءل لماذا لم يغيروا اسمه؟ وصاحت "جينجر":

– آه. لماذا هذا، تخيلوا أنه سُمى "مون ريبو" أى "راحتي". ومن يشغلوه حاليا وضعوا اللاّفتة القديمة في المدخل بعد وضعها في إطار. سألت:

– ومن الذي امتلك هذا المنزل؟ أجابت "رودا":

– ملك "تيرزاجري". لا بُّد وأنكِ شاهدتها اليوم. إنها سيدة فارعة ذاتَ شعر رمادي قصير. وواصل "ديسبارد":

– وهي منغمسة في علوم السحر والتنجيم. قهقهت "جينجر".

– المعذرة. هكذا قالت. لقد تخيّلت الآنسه "جري" في زي السيدة "مونتسبان" على مذبح مغطى بالقطيفة السوداء. حينئذٍ قالت "رودا" معترضة:

– "جينجر". لقد غفلت عن وجود الحبر الجليل. اعترض هذا الأخير بابتسامة طيبة قائلاً:

– عفواً. وهكذا كان الأولون يقولون.... ثم أنهى كلامه باللغة اليونانية. تمهّلت

بضع ثوان صامتا، قبل أن أستطرد:

– كنت أريد معرفة من هم الذين يشغلون هذا المبنى.. الآنسة "جري" ومن غيرها؟

– لها صديقة تعيش معها: "سيبيل ستامفورديس" وهي تقوم بدور الوسيط. هكذا يبدو لي. لابد وأن تكون قد رأيتها.... إنها مغطاة بالأجنحة والتعاويذ وأحيانًا تلتف بالساري وكثيراً ما تساءلت لماذا؟ علماً بأنها لم تذهب إلى "الهند" أبداً في حياتها. وبدورها تدخلت السيدة "دان كالتروب":

– توجد كذلك معها "بيللا" الكاهنة وهي أيضًا ساحرة. يبدو أنها عن وراثة؛ لأن أمها كانت ذات شهرة في دنيا السحر. قلت مندهشًا:

– يبدو لي يا سيدتي أنك تعتقدين في تأثير السحر.

– بالتأكيد، ولا غرابة في ذلك. إنه نوع من رأس المال العائلي يتوارثونه من الأم إلى الابنة، وهم يوصون الأطفال بألا يعذبوا القطط ويمنحوها المربَّى والجبن. وكنت في هذه الأثناء أنظر إليها في فضول؛ لأنها كانت تبدو جادَّة جداً. وقالت "رودا":

– كانت "ستيبو" جالسة تحت الخيمة الخضراء في فترة ما بعد الظهر وكانت تتنبأ بخبر سار، أعتقد أنها حذقة جداً. قالت "جينجر":

– لقد نبأتني بأمورٍ ممتعة. "مال"، أجنبي جميل: زوجان وستة أطفال. كما بدت كريمة جدا. ولم تُسَر السيدة "باكر" العجوز لسذاجة أولئك الناس، هكذا واصلت "جينجر" ضاحكة والسيدة "كريبس" أبدت اعتراضها" إنك تعلمين جيداً يا "ليري" أن الآنسة "ستامفورديس" ترى أموراً خفية تخص غيرها وأن الآنسة "جري" تتنبأ بالوفيات ولم تخطئ في ذلك مرة. وأضافت السيدة "كريبس":

– على أي حال لن أتعرض للإساءة إلى إحدى هؤلاء السيدات الثلاث، أو أطعن في إحداهن". حينئذٍ تحمست السيدة "أوليفييه" وأردفت:

– هذا يبدو لي مشوقًا. وأود لقاءهن ذات يومٍ. وعدها الكولونيل قائلا:

– سنصطحبك إلى هناك غداً. حقا إن الأوبرج القديم جدير بالزيارة. لقد نجحنا في جعله مريحًا دون انتزاع طابعه. وقالت "رودا":

– سأتصل تليفونيا بـ"تيرزا" صباح غد. أعترف بأني قضيت ليلتي حزينة. يبدو أن هذا "الحصان الشاحب" الذي كنت أعتبره رمزًا للشُؤْمِ والأذى، كان خاطئًا.... إلا إذا....

❖❖❖❖❖

وكان صباح اليوم التالي يوم أحد. توجهنا كلنا إلى الكنيسة وأصغينا في خشوع إلى عظة العلاَّمة السيد" دان كالتروب"و الذي قدّم تفسيراً للتاريخ الفارسي أكثر من أن يكون لنص ديني وقالت لي"رودا":

– سنتناول وجبة الغداء عند السيد" فينابل". سوف تحبه يا"مارك"؛ لأنه رجل لطيف جدا، جال كثيراً وله الكثير من المعلومات عن أمور كثيرة. لقد اشترى"بريورزكورت" منذ ثلاث سنوات. ولاشك في أن التعديلات التي نفذها فيه كلفته مبلغًا طائلاً. أصيب في صغره بشلل الأطفال وهو حاليا أشبه بالمشلول،لا يستطيع التنقل إلا بواسطة مقعد متحرك. وكان مطعم"بريورز كورت" لا يبعد عن القرية إلا بضع كيلومترات. هناك استقبلنا مضيفنا وهو جالس على مقعد المعوقين. قال في حرارة:

– إنها لمحة طيبة منكم بأن حضرتم عندي. لاشك في أنكم منهكون بعد يوم أمس. لقد كان حفلك ناجحًا جدا يا"رودا". كان"فينابل" في الخمسين من عمره تقريبًا، وهوذو وجه صغير يميزه أنف على شكل منقار النسر. ابتسمت السيدة"أوليفييه" عندما قدّمته لها"رودا". قال:

– لقد رأيت هذه السيدة بالأمس في أثناء التدريب على مهمتها، ووثقت

بفضلها في حضور ستة أفراد لاحتفالات عيد الميلاد المجيد. إنك حقًّا موهوبة ياسيدتي. لا تحرمينا منكِ .ثم التفت إلى" جينجر" وهو يمط شفتيه، وقال:

– أمّا عنكِ أيتها السيدة الشابة، لقد كدت تطالبيني بشائعة كاذبة. ثم التفت إليَّ:

– لقد أعجبني كثيراً مقالك في صحيفة "ريفيو" في الشهر الماضي. قالت" رودا" :

– لقد كان حضورك حفلنا تشريفا عظيماً لنا. ولم أكن متوقعة زيارتك لنا بعد إرسالك هذه الهدية القيِّمة.

– إني أعشق هذا النوع من العروض. ولقد نبأتني"سيبيل" بمستقبل لامع. أردف"ديسبارد" :

– إن "سيبيل" سيدة عجوز طيبة. سنتناول الشاي عند "تيرزا" في فترة بعد الظهر، المنزل هناك رائع وممتع جدا.

– لـ"شيفال بال" ؟ (الحصان الشاحب)؟ نعم، لكني أسفت؛ لأنه لم يعدْ "أوبرج" . لقد بدا لي هذا المكان وكأن له تاريخًا عجيبًا. لا ينبغي أن يشبَّه بمكان تهريب بضائع. إننا نبعد كثيراً عن البحر. قد يكون مقرًّا للصوص.... ربما! هناك العديد من المسافرين الأثرياء الذين ينزلون في الأوبرج لقضاء الليل، ويختفون غير تاركين أيَّ أثرٍ. ومع ذلك فهو مأوى لثلاث فتيات(عوانس) مسنات لا يصدر عنهن أي أذى. حينئذٍ صاحت"رودا" :

– آه.. إني لست مع هذا الرأي، قد تكون"سيبيل ستامفورديس" مشهورة بتمائمها وأحجيتها والساري الذي تلتف به أحيانًا، إنما" تيرزا" فهي فعلاً رهيبة. إنها تمنحك إحساسًا بأنها تقرأ أفكارك.. ولم تدَّعي قَطٌّ بأنها تعلم ما في الغيب.... ومع ذلك الجميع يؤكدون ذلك.وقال"ديسبارد" :

– و"بيللا" – بما أنها عانس– دفنت زوجين. قال "فينابل" ضاحكًا:

– أقدم لها اعتذاري. وأضاف الكولونيل:

– وما هو أكيد أن الجيران وصفوا هذه الوفيات بأسلوب محزن. لقد ادعوا أنها قتلت زوجيها بمجرد النظر إليهما.

– لقد نسيت، حقا، أليست هي الساحرة المحلّية؟

– إنها فكرة السيدة "دان كالتروب".

– فن السحر مشوق. أذكر ذات يوم. في "الهند"... وهكذا استرسل في التوسع حول هذا الموضوع، ووعدنا بأن يرينا– بعد تناول الغداء– أقنعة بعض السحرة من "جنوب إفريقيا". قالت "رودا" معلقة في مرح:

– هذا المنزل يزخر بكل شيء. هزّ كتفيه ثم بنبرة كلها مرارة– بعد أن ألقى نظرة إلى ساقيه المشلولتين– قال:

– لو لم يذهب "ماهوميت" إلى الجبل.... لكن حتى الآن.... ها هي الحياة تقدم تعازيها. فجأة سألت:

– ولم هنا؟ وفعلاً كنا كلنا نشعر بعدم الارتياح، ما عدا السيدة "أوليفييه" بما لها من فضول شديد، ولقد عملت على جعل جو الجلسة أقل توترًا. ألقى إليه "فينابل" نظرة استفسار، لذلك أردف:

– أقصد لماذا أتيت من أجل الحياة هنا؟ هل كان لكم أصدقاء في هذه المنطقة؟ أجابه وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

– لا. لقد وقع اختياري على هذا المكان بالضبط؛ لأنه لم يكن لي فيه أصدقاء. تساءلت إذا ما كانت عاهته أصابته نفسيا وبعمق، أم أنه قرَّر التلاؤم مع الظروف. قال لي وكأنه قرأ أفكاري:

– في مقالك الأخير، تناولت كلمة "العظمة" وما لها من معاني عديدة مرتبطة

بها. . . . في الشرق أو في الغرب وماذا تقصد بها هنا في "إنجلترا" عندما نستخدم عبارة: "رجل عظيم" ؟

– قدرة كبيرة مع قدر عالي الذكاء، وروح معنوية مرتفعة. . . . حينئذ لمعت عيناه.

– إذن لا يصح اعتبار الشخص الشرير" رجلا عظيمًا" ؟ الشر موجود والشر قوي وقد تفوق قوته أحيانًا قوة الخير. يجب الاعتراف بذلك والعمل على مقاومته. . . . وإلا فسوف نغرق ونتوه في الظلمات.

الفصل السادس

كانت الساعة قد جاوزت الرابعة عندما غادرنا"بريورز كورت" وكان"فينابل"– بعد تناول وجبة الغداء الممتازة– قد اصطحبنا في جولة حول كل أملاكه في شيء من الاعتزاز بالنفس. حقًّا.. إن المنزل يحتوي على كنوز. قلت لابنة عمي:

– لاشك في أنه يتنقل بمقعده على الذهب. كل هذه الأحجار الكريمة والمنحوتات الإفريقية وكذلك الخزف السكسوني وخلافه. إنك محظوظ أن يكون لك جار مثله. قالت" رودا" :

– لا.. إن للسيد"فينابل" شخصية تفوق جميع القائمين هنا، وكلهم يتمتعون بجاذبية فريدة من نوعها. حينئذ استفسرت السيدة"أوليفييه" :

– كيف كوَّن هذه الثروة؟ أم أنه كان ثريًّا بالوراثة؟ إن"ديسبارد" قد أشار في جفاء بأنه ليس من يستطيع أن يفتخر– في عصرنا هذا– بأنه حصل على إرث كبير؛ لأنَّ الضرائب والعوائد تلاحقه حتى تكاد تحرمه منه. ثم أضاف:

– قيل لي إنه بدأ حياته عاملاً (حمَّالا) في الميناء، لكن هذا يبدو غير محتمل. وهو لا يذكر أبدًا طفولته أو أسرته. فهو" الرجل العجيب" . وكان أوبرج"لي شيفال

بال "أي" الحصان الشاحب" عبارة عن منزل ذي حواجز، يقع بعيداً عن القرية قليلاً. وهو يتقدم حديقة محاطة بسياج. حينئذ خاب ظنيّ عندما شاهدته. وأعلنت ذلك قائلاً:

– المنزل لا يُوحي بالشُّؤْمِ .قالت "جينجر" :

– انتظر حتى تتواجد بالداخل. نزلنا من السيارة وفُتح باب المنزل عندما اقتربنا. كانت تقف عند عتبة الباب الآنسة "جري" وهي ذات قوام أقرب إلى قوام الرجال. لها جبين عريض وأنف كبير مقوّس وعينان زرقاوان ذواتا نظرات ثاقبة. قالت بصوت منخفض:

– آه! أخيراً وصلتم! ظننتكم ضللتم الطريق. ومن خلف ظهرها– في الظل– كان أحدهم يقف ملقيا إلينا نظرات غريبة. رأيت وجهه الغريب عديم الشكل. قامت "رودا" بتقديمنا إليها موضحة أننا تناولنا الغداء عند "فينابل" .

– آه.. إنها من توضح كلّ الأمور. لقد أسرفتم في الأكل لاشك في ذلك. إنَّ طاهيه الإيطالي يُعتبر علامة. وياله من منزل! المسكين ينقصه شيء ما. ادخلوا.. ما بالكم واقفين على عتبة الباب؟إننا فخورون بمنزلنا الصغير. وكان للمنزل سقف منخفض وبالتالي مظلم. به مدفأة، تعلوها لوحة داخل إطار.إذْ لمحت الآنسة "جري" نظرتي، قالت:

– إنها اللاّفتة القديمة: " الحصان الشاحب" . إضاءتها ضعيفة جدا ولا تُظهر شيئًا. أردفت" جينجر" :

– في إمكاني أن أنظفها. سلّميها لي وسوف تندهشين للنتيجة. أجابت "تيرزا" :

– أشك في ذلك. ثم أضافت بصراحة:

– وإذا أفسدتها؟ صاحت "جينجر" :

– مستحيل، إنها مهنتي. إني أعمل مع متاحف "لندن" . واصلت" تيرزا" :

– لإصلاح لوحة، لابد من التمتع بمرونة تامة؛ لأني أُصدم كلما توجهت إلى المعرض القومي. كل اللوحات هناك تبدو وقد تعرضت لمادة منظفة.
واعترضت "جينجر" :

– ومع ذلك لا تفضلين هذه اللوحة التي بلون المستردة. من الممكن أن نكتشف فيها ما هو أفضل. وإني لأتساءل: ألا يوجد فارس للحصان؟.... اقتربت منها لدراسة اللوحة. وكان ما يمنحها قيمة نسبيَّة العمر والقذارة.
صاحت "تيرزا" :

– هيا يا "سيبيل" .. إن زوارنا يعيبون على حصاننا. وكانت "سيبيل ستامفورديس" قد لحقت بنا. كانت هذه السيدة رشيقة ذات شعر كستنائي دهني. أما فمها فهو أشبه بفم السمكة وتحاول أن تبدو مرحة. كانت تضع ساريًا أخضر لا يضيف شيئًا إلى شخصيتها، وكان صوتها ضعيفًا ومهزوزًا بعض الشيء. قالت:

– حصاننا العزيز.. لقد كانت هذه اللافتة هي الدافع لشراء هذا المنزل. أليس كذلك يا "تيرزا" ؟ ادخلوا تفضلوا. وجدنا الحجرة التي أدخلتنا إليها صغيرة ومربعة، لاشك وأنها كانت بار "الأوبرج" فيما مضى وحوّلت حاليا إلى صالون ريفي. وإذا بالسيدة المسنّة التي كنت قد لمحتها في الصالة تدخل حاملة إبريق شاي لونه فضي. كانت ترتدي بلوزة بلون أخضر غامق خالية من أي زينة، ووجهها ذو قسمات خالية من أيّ تعبير، وكم كانت دهشتي عندما وجدتها. تحاملت وقلت في نفسي: "كم حماقة ارتكبت بشأن "أوبرج" قديم وثلاث سيدات مسنّات؟"
قالت "تيرزا" :

– شكرًا يا "بيللا " .

– هل عندك كل ما أنت في حاجة إليه؟

– نعم.. شكرًا. لحقت "بيللا" بالباب، دون أن تلتفت إلى أحدٍ لكنها ألقت إليّ نظرة خاطفة ماكرة قبل خروجها، وقد فوجئت بها. أحسست أنها دون أن تبذل جهدًا وتقريبًا بلا فضول تمكنت من قراءة كل أفكاري. حينئذٍ أردفت "تيرزا" :

– "بيللا" مرتبكة. أليس كذلك ياسيد "إستربروك" ؟ لقد شاهدتها وهي تتفحصك. عملت على إخفاء اهتمامي الداخلي وسألت:

– هل هي من سيدات البلد؟

– نعم وأغلبية الناس قد يقولون لكَ إنها الساحرة في هذا البلد. "سيبيل" طقطقت ورفعت حاجبيها وقالت:

– هيا اعترف ياسيد....

– السيد "إستربروك" .

– لاشك في أنك سمعت عنا بأننا نمارس أعمال السحر. اعترف بذلك.. اعترف بأن لنا شهرة واسعة. أتعلم.... وركزت "تيرزا" .

– "سيبيل" موهوبة جدا....حينئذٍ أطلقت هذه الأخيرة زفير رضا وتمتمت:

– لقد انجذبت منذ طفولتي نحو أعمال السحر والتنجيم. ولقد اكتشفت مبكرًا جدا بأني أتمتع بقدرات خارقة. والكتابة الآلية اكتسبتها بطريقة طبيعية، إذ كان يكفيني أن أمسك بالقلم.... ثم ما بعد ذلك يأتي بتلقائية....وبالتأكيد كنت دائمًا حساسة. وحدث لي ذات مرة في أثناء تناول الشاي مع إحدى صديقاتي أن غشي عليّ؛ لأن الحجرة التي كنا بها كانت مكانًا لحدث مفزع، كنت أشعر به أحيانًا. وعلمت كذلك أنه فعلاً كان قد تم في هذا المكان اغتيال قبل الآن بخمسة وعشرين عامًا. ثم حكّت رأسها وتلفتت إلى من حولها والسرور باد عليها. أردف الكولونيل "ديسبارد" محاولاً إخفاء تقززه:

– واضح. ثم أعلنت "سيبيل" بنبرة حزينة:

– لقد كان هذا المنزل شاهداً لأشياء مشؤومة عديدة، لكننا قمنا باللازم. لقد حرّرنا الأرواح التي كانت مقيدة على الأرض. قلت معلقًا:

– نوع من التطهير الروحي. ألقت "سيبيل" إليَّ نظرة ريب. وتدخلت "رودا" قائلة:

– لون فستانك مناسب لكِ تمامًا. استنار وجه "سيبيل" وقالت:

– لقد أحضرته من "الهند"، ياله من بلد شيق. لقد درست الـ "يوجا" هناك، لكنّي أشعر بأنه بلدٌ مازال بدائيا، الهند ليست مثل "هايتي" حيث يلمس المرء منابع حقيقية لأصول السحر والتنجيم، خذْ.... ثم نهضت وأمسكت بشيء موضوع على حافة النافذة وأردفت:

– ها هي " آسون" إنها عبارة عن ثمرة قرع مزدانة باللآلئ، وانظر.. هذه فقرات ثعابين. ألقينا إلى هذا الشيء نظرة أدبية لكنها خالية من أي حماس. قامت "سيبيل" بعد ذلك بهز لعبتها البشعة. وأضافت:

– ....وفي إمكاني موافاتكم بمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع. في هذه الأثناء كنت قد كففت عن الاستماع إليها وعندما حوّلت نظري التقت عيناي بعيني "تيرزا" التي كانت تتفحصني بانتباه. تمتمت:

– إنك لا تصدق ولا كلمة من كل ما نطقت به، وأنت مخطئ في ذلك. إننا لا نستطيع رفض كل ما يتعلق بالخرافة أو الوسوسة أو الخوف أو المبالغة في الدين أي التطرف. هناك حقائق وقدرات أساسية، منها الكثير على مر السنين وحاليا. قلت:

– لن أتناقش في ذلك.

– إنك شخص حكيم، هيا بنا إلى المكتبة لكي تراها أيضًا. وقادتني إلى الحديقة. قالت موضحةً:

– .... لقد أنشأنا المكتبة في الحظائر القديمة. كانت الحظائر والمنافع الأخرى

تكوّن غرفةً فسيحة بها حائط بأكلمه مثبت عليه أرفف تحمل الكتب. بنظرة تمكنت من تقييمها. قلت معلّقًا:

– لديكم مؤلفات نادرة. أليس هذا النص الأصلي لـ"مالوس ماليفيكوروم؟" بربي إنكم تقتنون كنوزًا! وهذا الكتاب "كتاب الطلاسم" يعتبر من أندر المخطوطات. وكانت "تيرزا" تراقب حماسي في سرور. قالت:

– ممتع جدا أن نتقابل مع شخص على مثل هذه الدراية؛ لأن الأغلبية يتثاءبون من الضيق أو من الانذهال.

– بالإضافة إلى كل ذلك، لابد من أنكِ لا تجهلين الكثير عن الممارسات في هذا المجال. مجال السحر رالشعوذة. أخبريني كيف ومتى بدأت الاهتمام بها؟

– من الصعب أن أخبرك بذلك.... منذ زمن بعيدلحق بي حدث غريب أدى إلى اهتمامي بالأمر، والسحر كدراسة شائقة جدا. أما بالنسبة إلى سذاجة الناس وما يلجئون إليه من سخافات.... ضحكتُ، ثم أردفتُ:

– إنه بالفعل، ممتع، لكن هل تثقين في كل ما تقرئين؟

– لا تقارن بيني وبين "سيبيل"؛ لأنها كثيراً ما تبدوا غبيّة؛ لأنها تخلط بين الـ"فودو" (وهي عبادة روحية عند زنوج جزر "آنتي" و"هايتي")، والسحر الأسود.... لكنها فعلاً تتمتع بالقدرة:

– القدرة؟

– لا أجد تعبيراً بخلاف ذلك....لأن هناك أناسًا من الممكن استخدامهم مثل جسر بين عالمنا والقدرات المشؤومة الخفية، و"سيبيل" واحدة من أولئك. إنها "وسيط" متميز وموهوب.. مع "بيللا" وأنا....

– "بيللا"؟

– نعم.. لكل منا تخصصها. في فريق.... ثمّ توقفت. قلت مبتسما:

– شركة السحر وشركائها.

– إذا شئت.

– وهل لك اعتقاد راسخ في كل ذلك؟ قالت بنبرة رنّانة:

– أنا لا أعتقد، إنما أعرف.

– كيف؟ وما هو السبب؟ بإشارة من يدها أشارت إلى الأرفف المحمَّلة بالكتب.

– الأغلبية يرون في ذلك حماقة وغباء. لو أنك انتزعت غلاف الشك وهذه المعتقدات لوجدت النواة حقيقة، والباقي عبارة عن كساء خارجي هدفه التأثير في نفسية الجموع.

– أنا لا أتابعك جيداً.

– اسمعني ياسيدي العزيز، لماذا– منذ العصور الماضية– نرى الناس وهم يلجئون إلى المنجّمين والسّحرة؟ لسببين فقط. وهما كافيان لإبعاد لعنة أمرين: تأثير معجون الحب أو السم.

– آه!

– الأمر بسيط وواضح. أليس كذلك؟ بلى. الحب.... والموت. لكسب الشخص الذي تحبه.... أو للاحتفاظ بالمحبوب، جرعة تؤخذ عند اكتمال القمر مع التعزيم على الشياطين والأرواح؛ لأن في الواقع معجون الحب عبارة عن شيء مهيّج للشهوة.

– والموت؟ حينئذٍ بدت على شفتيها ابتسامة غريبة، وقالت:

– أهكذا تهتم بالموت؟

– وهل أنا الوحيد؟ أجابت:

– إنّي أتساءل فقط.

– الموت؛ لأن كلنا معرضون له أكثر من الحب. ومع ذلك يا لها من سذاجة.

أتعرفين شيئًا عن آل "بورجا" وسمومهم الشهيرة؟ أتعرفين ماذا كانوا يستخدمون؟

– الزرنيخ لا أكثر ولا أقل، المادة التي تستخدمها أي زوجة غيورة في الأحياء الشعبية. غير أننا تقدمنا كثيراً في نظام الأفكار، لقد اتسعت معارفنا كثيرا عن طريق العلوم. سألتها ساخراً:

– بسموم لا تترك أثرًا أو دليلاً؟

– إنها لعبة قديمة وتعتبر طفولية. هناك العديد من الأساليب غيرها.

– على سبيل المثال؟

– الروح. معرفة أصل الروح، وما يستطيع عمله وما نستطيع نحن عمله له. المبدأ معروف جيدًا، وجميع سحرة البلاد البدائية تستخدمه منذ قرون عديدة. لا فائدة من قتل ضحيتك، يكفيك أن تقول لها أن تموت.

– الإيحاء؟ لكن هذا الأسلوب لا يجدي إذا كانت الضحية تعتقد في الإيحاء.

– تقصد أن هذا الأسلوب فاشل مع الأوربيين؟ أحيانًا، لكن المسألة لا تكمن هنا. لقد تجاوزنا الساحر. ها إن الأطباء النفسانيين قد رسموا الطريق. الرغبة في الموت! وهذه الرغبة موجودة داخل كل واحد منا، ويكفي غزوها.

– الفكرة جميلة، بذلك تنجحين في إقناع زبونك بأن يُقبل على الانتحار، أليس كذلك؟

– لا أقصد ذلك. أراك سمعت عن الصدمة النفسية المرضية.. أليس كذلك؟

– بالتأكيد.

– هناك أفراد يرفضون العمل لا إراديا، فيمرضون فعلاً، ولقد ظلَّ ذلك لُغْزًا يحيّر الأطباء. قلت في هدوء:

– لقدبدأت أتفهم فكرتك.

– لتدمير شخص ينبغي القيام بحركة معينة تؤثر فيما تحت الشعور عنده

والعمل على الحث والتشجيع على تقوية الرغبة عنده في الموت وهي موجودة داخل كل منا. بذلك نسبب لهذا الشخص مرضًا يدفع به إلى إنهاء حياته.... ومن هنا يأتي الموت. قالت هذا ثم رفعت رأسها علامة انتصار. شعرت إثر ذلك ببرودة تسري في جسمي. هذه السيدة مجنونة إلى حد ما.... ولكن، مع ذلك.... ضحكت فجأةً.

– ألا تصدقني؟

– لقد قبلت باعتبار أنها نظرية مسلِّية. لكن ما هي الطريقة المتبعة لحث الرغبة في الموت الكامنة فينا جميعًا؟

– هذا سر أحتفظ به لنفسي. وهو عبارة عن تبادل بلا تلامس مباشر. خذ مثلاً اللاسلكي والرادار والتلفاز، غير أن التجارب لم تنجح كما كان محتملاً، هذا لأننا لم نكن وقتئذٍ مرتكزين على مبدأ، إذ إن من يعرف كيف يتصرف في أمر ما لا يفشل أبدًا.

– وهل تعرفين السبيل؟ لم تجبْ في الحال،و أخيرًا قالت وهي متجهة ناحية الباب:

– لا تطلب مني يا سيدي العزيز أن أكشف عن أسراري. تبعتها وسألتها:

– ولماذا تخبريني بكل ذلك؟

– لأنك عرفت معنى الكتب الخاصة بي. يحدث أحيانًا أن يشعر المرءُ بالرغبة في.... بالرغبة في وضع ثقته في شخص معين. ومن جانب آخر....

– نعم!

– لديَّ فكرة.... "بيللا" لها نفس الفكرة.... وهي أنه في إمكانك الاستعانة بنا.

– أحتاج إليكم أم أستعين بكم؟

– حسب رأي"بيللا" لقد حضرت طرفنا.... لكي تعثر علينا، وهي نادرا ما تخطئ....

– لماذا سعيت للقائكم؟ أجابت"تيرزا" في هدوء:

– هذا ما لا أعرفه.... بعد.

الفصل السابع

– آه! إنكم هنا؟ لقد تساءلنا إلى أين توجهتم. كانت"رودا" واقفة على الباب ومن خلفها الأخريات. تلفتت من حولها وقالت:

– إنكم تعقدون جلساتكم هنا، أليس كذلك؟ أطلقت"تيرزا" ضحكة فاترة وقالت:

– لقد حصلت على معلومات جيدة. الجار في القرية يعرف الكثير عن أمورك الشخصية أكثر منك أنت ذاتك. أعتقد أننا نتمتع بسمعة طيبة وليست مشؤومة. ثم التفتت نحو السيدة" أوليفييه" وقالت:

– احرصي– في موضوعك الجديد– على الدخول إلى خباياه عن طريق السحر الأسود، وسوف أوفيك بالأخبار اللازمة. بدا حينئذٍ الضيق على السيدة"أوليفييه" .

– أنا لا أتناول سوى موضوعات الجرائم البسيطة. قالت هذا بلهجة الاعتذار كمن تقصد أن تقول:" أنا لا أجيد سوى المطبخ البورجوازي" . من جانبه ألقى"ديسبارد" نظرة إلى ساعة يده وقال:

– "رودا" يبدو لي أن....

– آه.. حقا، يجب أن ننصرف. الوقت متأخر أكثر مما كنت أتوقع. ثم تبادلنا عبارات الشكر والوداع ورافقونا حتى باب الحديقة. وفي أثناء مروره قال"ديسبارد" :

– لديكم أيضًا مكان كبير لتربية الدواجن. تدخلت "بيللا" وكانت قد لحقت بنا :

– عندنا ديوك خاصة .سألها "ديسبارد" :

– للاستهلاك؟ أجابته "بيللا" :

– إننا نحتاج إليهم . أردفت "تيرزا" :

– إنها ممكلة "بيللا" . حينئذٍ صاحت السيدة "أوليفييه"، فور دخولها إلى السيارة :

– أنا لا أحب هذه السيدة، إني أمقتها. قال لها "ديسبارد" :

– يجب ألا تتمسكي بتصرفات "تيرزا" جدّيا. إنها تسعى إلى ملاحظة رد فعل تصرفاتها وأقوالها.

– أنا لا أقصدها. إنها امرأة خالية من كل ما يدعو للشكوك. وهي ليست خطيرة مثل الأخرى.

– "بيللا" ؟ أعترف بأنها فعلاً متشائمة بعض الشيء.

– ولا تلك أيضًا، إنما أقصد هذه الـ"سيبيل" . إنها تبدو غبية. تنكُّرها والقصص الغريبة التي حكتها لنا. . . . لماذا– بين قوسين. أليست أبدًا عاملة في مطبخ أو فلاّحة مسنّة، أو أميرة مصرية أو أمة" عبدة" جميلة بابلية التي قامت بذكرها؟ لكن هذه على الرغم من غبائها– تشعرني بأنها كفيلة بالقيام بأمور منفّرة. إني لا أجيد التعبير. . . . أقصد أنه من الممكن استخدامها بطريقة معينة بالضبط؛ لأنها غبية ثم أضافت أخشى من ألاّ يفهمني أحد. قالت "جينجر" :

– بلى لقد فهمت. ولا أدهش لكلامك؛ لأنك على حق. حينئذ صاحت "رودا" :

– حقا . .يجب أن نحضر إحدى جلساتهم. لاشك وأنها شائقة ومثيرة

للفضول. قال "ديسبارد" معترضًا:

– لن تفيد بشيء، ولا أرغب في أن أراك مندمجة في هذه القصص. تظاهرا بأنهما يتشاجران. ولم ألتفت إلى رفاقي إلا عندما سمعت السيدة "أوليفييه" تتحدث عن قطار الغد.... حينئذ اقترحت:

– سأصطحبكم بسيارتي. على ما يبدو أنه لم يقبل هذا العرض، إذ قال:

– أفضل أخذ القطار.

– آه ليست المرة الأولى التي تستقل فيها السيارة معي. إنّي سائقة من الدرجة الأولى ومريحة.

– لا يا "مارك" أنا لا أرفض، هذا لأنّي مضطرة إلى حضور تشييع جنازة صباح غد. إني أمقت الدفن.

– هل أنت مضطر للحضور؟

– نعم، "ماري ديلافونتين" كانت صديقة قديمة.... وتتمنى أن أتواجد في جنازتها. صحت:

– "دي لافونتين" بالتأكيد، هذا أمر طبيعي. حينئذ ألقى إليَّ الآخرون نظرات دهشة.

– المعذرة.... لأني كنت أتساءل أين سمعت هذا الاسم؟ أنت من حدثتني عنها أليس كذلك؟ هل زرتها في العيادة؟أجابت السيدة "أوليفييه":

– حقا.. نعم، بلا شك.

– ماذا كان سبب وفاتها؟

– التهاب أعصاب.... تسمم. في النهاية ما يشبه ذلك. كانت "جينجر" في هذه الأثناء تنظر إليّ باهتمام. عندما نزلنا من السيارة، استأذنت؛ لأني كنت في حاجة إلى تدريب خفيف بعد تناول الغداء والشاي. وابتعدت قبل أن يعرض عليَّ أحدهم مرافقتي. كنت في حاجة إلى الانفراد بنفسي لمراجعة

أفكاري. على قائمة "كوريجان" كانت أسماء "توكيرتون" و"هيسكيث ديبوا" و"دي لافونتين" .... وها هي صديقة السيدة "أوليفييه" المريضة قد توفيت حاليًا، و"بوبي" نفت وبإصرار معرفتها لـ"الحصان الشاحب" وأكثر من ذلك، لقد أبدت فزعًا شديدًا. أما اليوم فأمامي "تيرزا جري" ....لكن لا علاقة للحصان الشاحب ومن يشغلونه بالقائمة. لماذا لست قادرًا على تقسيم هذه الأسماء في ذهني؟ ولماذا تمكنت– للحظة– من التفكير في أن هناك صلة بين هذا وذاك؟

من البديهي أن السيدة "دي لافونتين" قضت حياتها في "لندن". ومنزل "توماسينا توكيرتون" يقع في مقاطعة "سيري" ولا صلة له بهذه القرية الصغيرة. هذا إلا إذا....

بعد قليل تواجدت في مواجهة "آرم رويال" الأوبرج المتميز.. دفعت بابه. كان البار– وكان مازال مغلقًا– عن اليسار. وجدت لافتة أسفل السلم مكتوبًا عليها "مكتب" ومن هذا المكان كان المرء لا يشاهد سوى باب زجاجي مغلق بإحكام، وبجواره بطاقة تقول: "اضغط على الزر". وكان المكان يبدو خاليا من الناس. لمحت على الرف سجلاً قديما. فتحته وتصفحته. لا شك في أنه لا يستخدم كثيرًا. ومن عادة المسافرين ألا يطيلوا البقاء: ليلة وليس أكثر منها. وخرجت ثانية دون أن أرى أحدًا إلاّ أنَّ المصادفة وحدها شاءت أن أجد آل "ستانفورد" آل "باركينسون" ينزلان في "الأوبرج" خلال العام الماضي. وكان هذان الاسمان موجودين بالقائمة التي مع "كوريجان" ومن الأسماء الشائعة نسبيا.... غير أني كنت قد سجلت اسمًا آخر.... "مارتان ديجبي" لو كان هذا الشخص هو الذي أعرفه إذن فهو ابن أخ السيدة التي كنت دائمًا أناديها العمة "مينت" الليدي "هيسكيث ديبوا". وهكذا واصلت مسيرتي على غير هدى، وكل ما أرغب فيه هو التحدث إلى أي شخص كان

سواء إلى "كوريجان" أو إلى "ديفيد آردينجلي" أو إلى "هرميا" الهادئة والمتزنة ذات الإدراك السليم. كنت بمفردي والوحدة كانت ثقيلة عليَّ. لقد مضت نصف ساعة وأنا أتجول في الطرقات، وهأنا قد بلغت مقر الأسقفية. سرت بطول ممر غير ممهد وضغطت على جرس باب المدخل الذي يعلوه الصدأ.

❖❖❖❖❖

قالت لي السيدة "دان كالتروب" التي ظهرت على عتبة الباب كما لو كانت بطريقة سحرية:

– الجرس لا يعمل. لقد تم إصلاحه مرتين لكنه يتعطل ثانية، وهأنا ساهرة، لديك ما هو مهم تريد إحاطتي به علماً.. أليس كذلك؟

– بلى.... يخصني.... على أي حال.

– وهذا ما توقعته(قالت هذا وهي تلقي إليّ نظرة ساهمة) نعم الأمور لا تسير على نحو حسن. من تريد أن تشاهد، الحبر الجليل؟

– لا.... لا أعتقد. كان هو الذي فكرت فيه لكي أمنحه كل أسراري وحاليا أصبحت لا أدري ما ينبغي أن أقوم به. فما كان من السيدة "دان كالتروب" إلا أنها أتت لنجدتي. قالت:

– زوجي رجل طيب وقد يتسبب ذلك في تعقيد الأمور أحيانًا. لاحظ أن الناس الطيبين لا يدركون الشر. من الأفضل أن تلجأ إليَّ. عجزت عن إخفاء ابتسامتي.

– هل أنتِ متخصصة في الشر؟

– نعم، بالضبط. في إمكان زوجي منح الحل من الخطايا لكني لا أستطيع ذلك.. أمَّا ما هو في إمكاني هو أن أقدمها إليه وأن أساعده على تصنيفها. عندما يكون المرء على دراية بالشر، في وسعه أن يحول دون تطوره بحيث لايتسبب في معاناة أناس آخرين. أما بالنسبة إلى المخطئ فليس في إمكاني

معاونته. إنه عمل الله وحده....

– حسنًا.. الآن لي رغبة في العمل على ألا يعاني بعض الأفراد ألمًا. ألقت إليّ نظرة خاطفة. وقالت:

– آه، هذا ما تريده؟ اتبعني إذن.

– كان صالون المقر فسيحًا ومظلمًا، به أثاث متواضع، ومع ذلك كان المكان يمنح احساسًا بالارتياح والاستقرار. كم من فتاة ارتكبت حماقة إلاّ واستقبلتها السيدة "دان كالتروب" وواستها ونصحتها بطريقتها! وكم من زوجات عانين من سوء معاملة حمواتهن وشراستهن، وكم من زوجات تعانين عدم تفهم الزوج لمشاكل الأبناء؟ وأنا نفسي، ألست موشكًا بالإدلاء بمخاوفي لهذه السيدة ذات الوجه المتعَب؟ لماذا؟ لست أدري لا أعلم شيئًا، إنما ما علمته هو أني كنت مقتنعًا بأنّي وجدت الشخص الذي أنا في حاجة إليه. بدأت حديثي هكذا:

– لقد تناولنا الشاي مع "تيرزا" .وكان التفاهم مع السيدة "دان كالتروب" سهلاً جدا.

– أدرك ذلك تمامًا. كان هذا الموقف صعبًا جدا بالنسبة إليك....كل هذا الزهو.. لقد أدهشني أنا ذاتي. إني مدركة ذلك بالخبرة. لا يمكن أن يفتخر الشخص الشرير، وليس من يتحدث عن عيوبه إلاّ إذا كانت عديمة الأهمية، وبالإجماع كل ساحرات القرية عامة سيدات مسنات على قدر كافٍ من الغباء، يعملن على إرهاب الناس وهو ما يسعدهن، ومن الممكن أن تكون "بيللا" من هذا النوع أما "سيبيل" وإن كانت غبية إلا أنها وسيط حقيقي. "تيرزا" .... لست أدري. ماذا قالت لك؟ هي التي أربكتك.. أليس كذلك؟

– خبرتك كبيرة جدا يا سيدتي. أتقبلين فكرة تدمير شخص عن بعد، بلا

أي علامة ظاهرة بأي شخص آخر؟ فتحت السيدة" دان" عينيها الواسعتين.

– هل تقصد بكلمة (يدمّر) أن يُقتل ببساطة؟

– نعم

– هذا غباء. هكذا أردفت في حماس.

– آه!

– بالتأكيد. من الممكن أن أخطئ. كان والدي يرى أن الملاحة الجوية مستحيلة، ولاشك في أن جدي كان له نفس الحكم على القطارات وكل منهما كان على حق؛ لأن في عصرهما كانت هذه الأشياء مستحيلة، ولقد أصبحت ممكنة حاليا. ما الذي تفعله" تيرزا"؟ هل تستخدم شعاعًا مميتًا؟ أم إنها ورفيقاتها يركِّزن على فكرة وضع علامات سحرية وسريّة؟ ابتسمت، ثمّ أردفت:

– إنك حقًّا تتمتعين بروح التدقيق. كان إذن ينبغي أن أستسلم لتحذير هذه السيدة أو لتنويمها المغناطيسي لي.

– وكل ذلك لا يساعد في الحصول على أي شيء لكنه أخبرني ما الذي قبل ذلك هل حدث شيء ما؟

– إنك على حق. وبذلك سردت لها في اختصار اغتيال الأب"جورمان" والإلماع– بفكرة "الحصان الشاحب". ثم أخرجت من جيبي قائمة منقولة عن تلك التي أطلعني عليها"كوريجان". درستها السيدة"دان كالتروب" وهي مقطبة حاجبها. ثم قالت:

– وما هو العامل المشترك بين كل أولئك؟

– إننا نجهله.... هل هو اغتيال من أجل الابتزاز.... أم أنه لتعاطي المخدرات....؟!

– أمر عجيب.. ليس هذا ما يزعجك أويقلقك، إنما لأنهم ماتوا كلهم.

أطلقت زفيراً عميقًا ثم أردفت:

– نعم، أعتقد ذلك. لقد مات ثلاثة منهم "ماري دي لافونتين" و"هيسكيث ديبوا" و"وتوماسينا توكيرتون" و"ماريدي لافونتين" ومن آزرتني هي"تيرزا جري" وبذلك كان ينبغي أن تسير الأمور.

– هل قالت لك إنها هي المسؤولة؟

– لا. كانت تتكلم بطريقة عادية، موضحة لي ما تعتبره إمكانية علمية.

– وهو مايبدو غريباً عند النظرة الأولى.

– أعلم ذلك ولو لم تكن فكرة" الحصان الشاحب" العجيب لما ضحكت على هذا الأمر. حينئذٍ تمتمت السيدة"دان" وقد بدت ساهمة!

– نعم"الحصان الشاحب" يعتبر رمزاً. ثم صمتت للحظات وبعد ذلك رفعت رأسها بحركة حارّة.قالت:

– وضع سيئٍ جداً يجب إيقافه، مهما يكن ما وراءه.

– نعم، لكن ما العمل؟

– اعثروا عليه. ليس لدينا وقت نفقده(نهضت) اعملْ أيَّ شيء(وفي الحال). أليس لك صديق يستطيع معاونتك؟ فكرت.. "جيم كوريجان" ؟ العمل كثير وفترات الراحة قليلة جدا. لاشك في أنه يعمل ما يقدر عليه."ديفيد" "لن يصدق كلمة واحدة "هرميا"؟ نعم.... فهي صاحبة الإدراك الواعي والنطق السليم.... ولما كانت السيدة"دان" لا تميل إلى ضياع الوقت، سألت:

– هل فكرت في أحد؟

– لن أضع الساحرات الثلاث في الاعتبار؛ لأني لا أشعر بأن لديهن مفتاح السر، ولا أستطيع الامتناع عن التفكير في أن"تيرزا جري" سمعت كلاماً عن شيء ما وبالتالي شرعت في استخدامه لكي تجذب اهتمام الناس بها وبالتالي

تكون ذات أهمية.

الفصل الثامن

رفع "ليجين" رأسه وإذا به يرى الدكتور "كوريجان" يدخل إلى مكتبه وهو يطلق صفيراً. قال:

– آسف لأنيّ لم أعجب أحداً. لكن قائد السيارة الـ"جاجوار" هو السبب في التأخير. لم يهتم "ليجين" لهذه التفاصيل مبدئيا ثم قال:

– خذ اقرأ هذا. تناول "كوريجان" الخطاب، وكان مكتوباً بخط واضح، ومسطر أعلاه:

– "إيفريست"، "جلنداور"، "كلوز"، "بورنماوث"

– سيدي المفتش..

لاشك في أنك تتذكر أنك طلبت مني أن أخطركم إذا شاهدت الرجل الذي كان يتعقب الأب "جورمان" ليلة اغتياله. لقد راقبت الأنحاء المجاورة كلها بالتدقيق دون أن ألمحه فيها، غير أني– مساء أمس– حضرت حفلاً خيريًّا أقيم في قرية تبعد حوالي عشرين كليومتراً من هنا. انجذبت إليه بدافع أن القائمة به مؤلفة روايات بوليسية، وهي السيدة "أوليفييه" ولما كنت من كبار قراء القصص البوليسية دفعني فضولي إلى مقابلة هذه السيدة. كم كانت دهشتي عندما رأيت الرجل الذي وصفته لك، لكن لابد وأنه تعرَّض لحادثة بعد وفاة الأب "جورمان" لأنه يتحرك على مقعد للمعاقين. بعد التحريات التي قمت بها عنه علمت أنه يسكن في "بريورزكورت" تحت اسم مستعار: "فينابل" ويقال إنه ثري جدا.

أتمنى أن تفيدكم هذه التفاصيل وتفضلوا بقبول فائق احترامي وتقديري.

المخلص

"زا كاريا أوسبورن"

ثم قال "ليجين" :

– ما رأيك؟أجاب "كوريجان" في غير حماس:

– أراه غير محتمل.

– ربما مبدئيا. لكني لست واثقًا....

– إن "أسبورن" لم يكن وقتئذ في وضع يمكنه من رؤية وجه الجاني بوضوح، في ليلة يكسو سماءها ضباب كثيف، لابد من أنه يشبهُ المصادفة. كثيرون يتوهمون أنهم رأوا الشخص المختفي بناء على تفاصيل يتخيلونها وذلك بنسبة 9 إلى 10 وفي الواقع لا صلة للجاني عمّا يصفونه.

– لكن "أسبورن" ليس مثل أولئك الذين تذكرهم.

– من هو؟

– صيدليّ محترم. له شخصيته وهو لمّاح جدا.

– لذلك أتعتقد أن في هذا البيان دليلا؟

– على أيّ حال لا يضرنا القيام بإجراء تحقيق دقيق مع بحث موسع حول هذا الـ "فينابل" .

الفصل التاسع

قالت " هرميا" بنبرة مهزوزة:

– تحدث أمور غريبة في القرية. وكنا وقتئذ قد انتهينا من تناول العشاء. نظرت إلى "هرميا" . لم أجد عندها رد الفعل الذي كنت أتوّقعه. وبعد أن قضيت ساعة في سرد قصتي لها، لم تبدِ لها حماسًا ولا ضيقا على الرغم من أنها كانت تصغي إليَّ بكل اهتمام. واصلت:

– إن أولئك الذين يعتقدون أن الريف ممل وأنه بالمدينة وسائل عديدة

للترفيه لا يدركون ما يقولونه. ساحرات قداسات سوداء وأمورعن طقوس جهنمية.... من الممكن إنتاج سلسلة من مقالات مسليّة بالاستعانة بكل ذلك. لماذا لا تحاول؟

– يبدو أنك لم تفهمي جيدا ما قلته لكِ يا"هرميا".

– فهمت جيداً يا"مارك"، وأرى ذلك شائقًا جدا. إنها صفحة تاريخية.. بقايا تقاليد العصور الوسطى. أجبتها وقد أثارتني:

– إني أسخر من الجانب التاريخي، وما يهمني هي الأحداث الجارية. قائمة أسماء على ورقة. أعرف ما حدث لبعضهم ولكني لا أدري ما سوف يحدث للآخرين.

– ألا ترى أنك مندفع إلى حد ما؟

– لا .إني أجد التهديد حقيقة، وزوجة الحبر الجليل تشاركني في هذا الرأي. أردفت"هرميا" بنبرة هزء:

– آه.. زوجة الأسقف؟ قلت معترضًا:

– إنها امرأة كاملة، والموضوع جاد يا "هرميا". هزّت كتفيها وقالت:

– ربما، لكني أعتقد أنك مسترسل في خيالك. إن فتياتك الثلاث لاشك في أنهن مقتنعات بصحة ما يسردن .وهن بالتأكيد كريهات.

– لكنهن لسْنَ خطيرات؟

– كيف يحدث يا"مارك" أن تصدر عنهن أيّ خطورة؟ حينئذ أخذت أفكر أو بمعنى أصح لقد جال ذهني في ظلمات موضوع "الحصان الشاحب" والضوء الذي تلقي به"هرميا" بكشفها عن الأشياء بكل بساطة.

– إنك على حق، قد يكون شائقا بل ومسليًا حقا.

– آه لا يا"هرميا". لقد أتيت طالبًا معونتكِ.

– أعاونك أنت؟ لكن كيف؟ وفيم؟

– في البحث والتحقيق.

– لكن يا"مارك" ياعزيزي لدي عمل كثير.... هذا المقال الخاص بالجريدة. الموضوع البيزنطي، ولقد وعدت اثنين من تلاميذي.... كنت في هذه اللحظات غير مُصغٍ إليها.

– نعم، نعم، أفهم جيداً أنك مثقلة بالأعباء. قالت:

– بالضبط. ثم ابتسمت لي، ولقد تأثرت كثيراً لما بدا عليها لمحة من اهتمام وحنان، أقرب ما تكون إلى تلك التي تمنحها أم إلى طفلها المهتم بلعبة جديدة.. غبية، أنا لست صبيًّا!

❖❖❖❖❖

في صباح اليوم التالي حاولت عبثًا الاتصال بـ"جيم كوريجان" أو لقاءه. فتركت له رسالة أطالبه فيها بالحضور طرفي فيما بين الساعة السادسة والساعة السابعة، وعلى الرغم من أني كنت متوقعًا عدم تلبيته لرغبتي لكثرة مشاغله، وصل في الساعة السابعة إلاّ عشر دقائق. قدمت له مشروبًا ووضحت له الغرض من استدعائي له.

– لابد وأنك تساءلت عن سبب استدعائك بمثل هذه الطريقة المتعجله، لكن هذا؛ لأنه قد تمت أمور ربما تكون لها صلة بالموضوع الذي تناولناه في المرة الأخيرة.

– أي موضوع؟ ....آه آه، نعم. قصة الأب"جورمان" .

– نعم أولاً.. ما رأيك في "الحصان الشاحب"؟

– الحصان الشاحب؟ لكني لا أرى.... لماذا؟

– لأني أعتقد أنه قد تكون له علاقة بقائمة الأسماء التي أطلعتني عليها. إني كنت في الريف مع بعض الأصدقاء الذين اصطحبوني إلى أوبرج يُدعى "الحصان الشاحب" وهو يقع في" ميس ديبنح" .

– تمهل! "ميس ديبنح"؟ أليس في ضواحي "بورنماوث"؟

– على بعد حوالي خمسة عشر كيلومترا.

– وهل تقابلت مع شخص يدعى "فينابل"؟

– نعم. لقد رأيته هناك.

– هل شاهدته؟ إنك محظوظ. وبم شبهته؟

– إنه شخصية متميزة.

– في أي شيء. ما الذي يميزه؟

– متميز بشخصيته القويّة على الرغم من أنه مشلول. حينئذٍ قاطعني "كوريجان" بشدة:

– ماذا؟

– لقد أصيب بالشلل منذ عدة سنوات، وهو مشلول في نصفه السفلي. ألقى "كوريجان" بنفسه على ظهر مقعده مبديًا حركة تقزز.

– هذا الأمر يهدم كلَّ شيءٍ. كنت متوقعا غير ذلك.

– أنا لا أفهم شيئًا ممّا تقول.

– لابد لك من مقابلة المفتش "ليجين"؛ لأنه سوف يهتم كثيراً بما أخبرتني به حاليًّا؛ لأنه عندما قُتل "جورمان" ناشد "ليجين" الناس بأن من يكون قد لمحه في تلك الأمسية أن يعلن عن نفسه. ومن المفهوم أنه حتى الآن جميع المعلومات غير مجدية. لكن حدث أن شخصًا، يدعى "أسبورن" – وهو صيدلي – أعلن أنه رأى الأب "جورمان"، وكان يتعقبه عن قرب شخص مجهول وتمكن من الإدلاء بأوصافه، ومنذ عدة أيام تلقى "ليجين" خطابًا من هذا الشخص الذي يقضي حياته الآن في "بورنماوث" هناك، حيث يدَّعي أنه تقابل مع الجاني في أثناء حضور حفل خيري، ولما استفسر عنه قيل له إنه يدعى "فينابل".

– نعم، لقد حضر الحفل، لكنه كان لا يستطيع تتبع الأب "جورمان". لقد

أخطأ السيد "أسبورن" .

– لقد وصفه بدقة: أنف أشبه بمنقار النسر وتفاحة آدم بارزة جدا....

– نعم قد تكون الأوصاف مطابقة.... ومع ذلك....

– أعلم. "أسبورن" ليس معصومًا من الخطأ. لقد وقع في خطأ الشبه. لكن ما يشد انتباهي هو أنك تتكلم عن نفس البلد... "حصان شاحب" ....

– قد لا تصدقني!

– توجَّه إلى هناك باستمرار. ووافيته أيضًا بحديثي مع "تيرزا" .حينئذٍ بدت عليه علامات الدهشة وأردف قائلاً:

– يا له من هذيان! هراء! ما الذي دهاك يا "مارك" ؟ دجاج أبيض... من أجل الأضحية على ما أعتقد؟ وسيط وساحرة الناحية وعانس يقمن بإرسال شعاع مميت. هذا جنون يا صاحبي... جنون...!

كررت وكلّي أسى:

– جنون حقا جنون.

– كفى يا "مارك" لئلا أثق بهذه الأمور. هل تعتقد من جانبك في أمور السحر؟

دعني أولا أوجه إليك سؤالا: هل حقًّا أن كلاًّ منا يرغب في الموت؟

– لست طبيبًا نفسيا. نصفهم تجلّدوا بالصبر ويمنون أنفسهم بعبارات واهية متجاوزين الحدود. أؤكد لك أن الشرطة لا تعتبر ما يقولُه الأطباء الخبراء لتبرير تصرّفات الجاني كلمات مقدسة.

– أتفضل نظريتك عن إفراز الغدد؟

– لقد أيقنت ووافقتك على أني صاحب نظرية أنا أيضًا. لكن نظريتي مبنية على أسس بدنية سليمة. إنما عن عبارة: الشعور الباطن!

– ألا تثق بها؟

– بالتأكيد أعترف بها. لكن لا ينبغي المبالغة. هناك تعبير آخر بالنسبة إلى عبارة" الرغبة في الموت" ولكن ليس بالمعنى المسموع. عليك إذن بشراء دليل في علم النفس.

– "تيرزا جري" تدّعي معرفة كل شيء بشأن هذا الموضوع.

– "تيرزا جري"..! ما الذي تعرفه مثل هذه العجوز المتقوقعة؟ إنه هراء!

– هذا ما ادعته كل منهن وكذلك جميع الناس عن كل الاكتشافات التي تتفق مع أهوائهم وميولهم: المدرعات أشياء تافهة والطائرات أشياء تافهة. والـ...قاطعني:

– إذن أنت ملم بكل شيء.

– لا.. على الإطلاق، غاية ما في الأمر، أريد معرفة إذا كانت هناك قاعدة علمية لهذا الإحساس أو أوقظ هذه الرغبة الخفية. أبدى ازدراءه:

– قاعدة علمية؟ ياعيني!

– حسناً. على الأقل أخبرني عن أمر قائمة الأسماء وما توصلت إليه بشأنها.

– لقد جاهدنا من أجل فحصها، لكنها مسألة وقت. من الصعب تحديد هوية أسماء بدون عناوين.

– ضع ذلك في الاعتبار. أراهنك بأنه منذ عام أوعام ونصف العام ظهر كل اسم من هذه الأسماء على صفحة الوفيات. هل أنا مخطئ؟ ثم ألقى إليّ نظرة قاسيةً. قلت:

– إنك على حق.... وهو الأسوأ.

– كلهم متحدون في أمر واحد: "الموت".

– نعم، لكن هذا لايمنح الأهمية التي يبدو عليها،أتعرف عدد الموتى يوميًّا في "إنجلترا؟ العديد من أسماء أولئك شائع جدا.... وهو ما لا يُسهِّل

الأمور. قلت:

– "دي لافونتين".. "ماري دي لافونتين" هذا اسم شائع. لقد تم تشييعها يوم الثلاثاء على ما أعتقد.

– كيف علمت بهذا الخبر؟

– عن طريق إحدى الصديقات.

– كانت هذه الوفاة طبيعية ومع ذلك لقد أجرت الشرطة تحقيقًا عنها، وجميع الوفيات كانت طبيعية. لو كانت هناك حادثة لاستدعى الأمر تداول الشبهات وإجراء التحقيق، ولكن في حالات" الالتهاب الرئوي أو الفشل الكلوي أو نزيف بالمخ أو الورم بالمخ فليس هناك ما يدعو للشك.

– بالضبط لا وجود لحادثة. مجرد مرض شائع ومن بعده الوفاة .... وهذا ما تذكره"تيرزا جري".

– هل ستدّعى أن هذه السيدة قادرة على إصابة شخص لم تره من قبل بالتهاب رئوي يؤدي إلى وفاته؟

– أنا لا أدّعي مثل هذه الأمور. إنها هي. من جانبي أراها أموراً خيالية يصعب تصديقها. لكن هناك أموراً تثير الفضول على سيبل المثال" الحصان الشاحب" قائم والسيدة المقيمة بداخله تعلن أن مثل هذا العمل ممكن. والرجل الذي يُقال عنه إنه تتبع الأب"جورمان" يسكن في هذه الضاحية.

– لايمكن أن يكون"فينابل" طالما تقول بنفسك إنه مشلول؟

– ألا يمكن من الناحية الطبية أن يكون هذا الشلل مصطنعاً؟

– بالتأكيد لا؛ لأن الأطراف أصيبت بالضمور. أيدت كلماته وأطلقت زفيراً:

– من البديهي أن ذلك قد يحل المسألة. يا للأسف لو كانت هناك منظمة متخصصة– لست أدري كيف أسميها متخصصة في"إلغاء البشر"–

لرأيت "فينابل" على رأسها. إن ما يمتلكه من أشياء فنية يؤكد ثراءه إذن من أين له كل هذا المال؟! ثم واصلت حديثي:

– وجميع الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة على فراشهم، من الذين سوف يرثونهم بعد وفاتهم؟

– هناك دائماً من ترجع إليه الثروة التي يتركها المتوفىً حسب نسبة القرابة. ولابد أن تعلم أن الليدي "هيسكيث ديبوا" تركت حوالي خمسين ألف جنيه وورثها ابن أخ وابنة أخت أو أخ لها. الابنة تزوجت في "إنجلترا" ولم يكن كلاهما في حاجة إلى المال.... والد "توماسينا توكيرتون" ترك ثروة قد تعود إلى حماة "توماسينا" إذ توفيت الفتاة غير المتزوجة قبل بلوغها سن الرشد.... هناك كذلك السيدة" دي لافونتين".... إنها ابنة عم تملك....

– آه.. حقًّا وماذا عن ابنة العم هذه؟

– إنها تعيش في "كينيا" مع زوجها.

– وكلهم تغيبوا. حينئذ ألقى إليّ "كوريجان" نظرة عتاب.

– ومن آل "ساندفورد" الذين توفوا، ترك أحدهم زوجة كانت تصغره سنًّا بكثير.... ولقد تزوجت للمرة الثانية... ولم تفقد الوقت. هذا الـ"ساندفورد" كاثوليكي وكان لا يرغب في الطلاق.... هناك أيضًا سيدني "هارموندورث" الذي توفي إثر نزيف في المخ، كان– هكذا يشكُّون في أنه كوَّن ثروته من ابتزاز الآخرين، وكثيرون سُرّوا لوفاته.

– سوف تقتنع أن كل هذه الوفيات تمت في وقت مناسب. وماذا بشأن "كوريجان"؟

– إنه اسم شائع ولقد مات بهذا الاسم كثيرون.... لكن– حسب درايتنا– ليس هناك من يرثهم.

– إنك إذن الضحية القادمة. خذ الحذر.

– لن أفلت من الموت. هل تعتقد أن الساحرة التي تتحدث عنها سوف ترسل مرض السرطان في الاثني عشري أو الإنفلونزا الإسبانية؟

– "جيم"! إني في حاجة إلى دراسة موضوع"تيرزا جري".

– أتريد أن تعاونني؟

– آه لا، لأني أستنكر أنَّ إنسانًا مثقفًا مثلك يثق بمثل هذه التفاهات.

– ليتك تستخدم تعبيراً آخر.

– هذا الهذيان.

– ليس أفضل.

– إذن نعتبرك عنيداً.

– إنه أمر ضروري. لابد أن أكون هكذا.

الفصل العاشر

"جنداور كلوز" عبارة عن طريق تم شقه حديثًا على شكل نصف دائرة، وكان العمال مازلوا يعملون فيه. وفي منتصف الطريق، كان هناك سياج عليه لافتة مسطَّر عليها: "إيفريست". وكان في الحديقة رجل يغرس بصلا. تعّرف "ليجين" بسهولة على"أسبورن". دفع السياج. انتصب" أسبورن"لكي يرى من الذي اقتحم أرضه وعند مشاهدة الزائر، أضاف السرور إلى وجنتيه بعض الحمرة. وكان"أسبورن" الريف هو "أسبورن" المدينة. كان يرتدي قميصاً ويحتذي حذاء ثقيلا، غير أن هذا المظهر كان يُنقص قليلاً من مظهره التدقيقي(ميال إلى التدقيق).. صاح:

– صباح الخير سيدي المفتش. إن زيارتك شرف عظيم لي. لقد استلمت ردك على خطابي ولم أتوقع قطُّ ولم أفكر قطُّ في مشاهدتك شخصيا. مرحبًا بك في قصري الصغير، في"إيفريست" الخاصة بي. قد تُفاجأ لهذا الاسم لقد

تتبعت بعثة السير "إدموندهيلاري" بالتفصيل. ياله من رجل عظيم! يالأمجاد بلدنا! تفضل ادخل.

تقدم "أسبورن" المفتش داخل المنزل الصغير. كان المنزل يبدو مرتبًا ولكنه مؤثث بأبسط الأثاث. وضح الصيدلي السابق:

– أنا لم أستقر بعد في المنزل، وأواظب على حضور جلسات البيع بالمزاد، هناك توجد بعض الموبيليا(الأثاث) بربع الثمن الذي يُطلب في المحلات. تُرى ماذا أقدم؟ هل تريد عصيرًا أم قدحًا من الشاي اختار "ليجين" العصير. ابتعد السيد "أسبورن" وعاد بعد لحظة، حاملاً كوبين بهما العصير.

– قليل من الراحة سوف يفيدنا ولا يضرنا. "إيفريست" .آه! آه! إني أحب المزاح دائمًا. ثم شربا.

– تُرى هل أفادتك المعلومة التي وافيتك بها؟

– للأسف ليس بالقدر الذي كنا نرجوه.

– آه.. لقد خاب ظني.. أعترف لك بذلك، وإن كنت أرجح أنه ليس من مبرر لكي يكون الشخص الذي تتبع خطوات الأب "جورمان" هو الذي اغتاله، وهذا الـ"فينابل" شخص ثري ومحترم وهو يتردد على أناس من صفوة المجتمع. أردف "ليجين" :

– وبالتالي فإن الشخص الذي رأيته ليس السيد "فينابل" . نهض السيد "أسبورن" في حمية وقال:

– آه. لقد كنا واثقين من ذلك، ولا أنسى ملامحه أبدًا.

– ومع ذلك لقد أخطأت. السيد "فينابل" أحد ضحايا شلل الأطفال وهو على هذا الحال منذ ثلاث سنوات ولا يستخدم ساقيه. صاح "أسبورن" :

– شلل الأطفال.... إذن بذلك وجدنا الحل للمشكلة.. المعذرة ياسيدي المفتش.... ولا تتحامل عليَّ.... لكنْ عندي سؤال.. هل معك الدليل، أي

شهادة طبية تفيد بذلك؟

– نعم. السيد "فينابل" يتردد على السير "ويليام ديجدال" في "هارلي ستريت" – لمتابعة علاجه– وهو من أشهر الأساتذة المتخصصين في هذا المجال.

– بالتأكيد . . . . بالتأكيد الاسم شهير جدا. فعلاً لقد أخطأت؛ لأني كنت واثقًا تمامًا . . . . لقد أزعجتك . . . . المعذرة. قال "ليجين" :

– لا تتأثر بالموضوع. على أي حال معلومتك مازالت محتفظة بقيمتها . . الرجل الذي رأيته يشبه كثيرًا السيد "فينابل" . اطمأن "أسبورن" قليلاً وقال معترفًا :

– بالضبط. قد لا يتواجد العديد من المجرمين لهم نفس المواصفات في بياناتك في . . . . كان ينظر إلى المفتش وكله أمل.

– قد لا يكون بمثل هذه البساطة. من الممكن ألاّ يكون للرجل بيان في السجلات المدنية. وكما أشرت إليه فإنه لا وجود لما يثبت أنه مرتكب جريمة اغتيال الأب "جورمان" . مرة أخرى بدا "أسبورن" مكتئبًا. قال :

– ليتك تغفر لي .إنه أمر عجيب. لقد أردت القيام بتقديم دليل عن المجرم الجاني . . . . أؤكد لك ذلك، قد لا يدفعون بي إلى تغيير رأيي. لو حدث ذلك لبقيت على مبدئي. أخيرًا نفد صبر هذا الأخير، قال :

–ماذا؟

– لماذا تتمسك بالبقاءعلى مبدئك؟ بدا الصيدلي مندهشًا ثم قال :

– لأني واثق . . . .آه نعم، لقد أدركت فيم تفكر. لقد أخطأت في الرجل ويقيني هذا أصبح بلا هدف أو فائدة. ومع ذلك إني أشعر بثقتي هذه . . .

– لابد وأنك تتساءل عن سبب تواجدي عندك مادمت أني منحتك الدليل الطبي على أن السيد "فينابل" ليس هو المشتبه فيه . . أليس كذلك؟ حسنا . . لقد أتيت؛ لأني دهشت لتأكيدك للأوصاف التي قدمتها . . . . ليتك

تتذكرها، في تلك الليلة كان الضباب كثيفًا. لقد توجهت إلى صيدليتك ووقفت أمام بابها. ولقد بدا لي أنه من المستحيل تمييز ملامح شخص آخر- في هذه الليلة المعتمة- موجود على الرصيف المقابل من الشارع.

- إنك على حق نسبيا. كان يتصاعد ولكن بطريقة غير منتظمة، فكانت هناك أماكن مضيئة. هكذا تمكنت من رؤية الأب "جورمان" والرجل الذي كان يتبعه وبالأكثر عندما وصل إلى مستواه، أشعل الولاّعة لكي يشعل سيجارة، لقد شاهدته من الجنب في هذه اللحظة: الأنف والذقن وتفاحة آدم. وهو لم يأت عندي قط وبخلاف ذلك لن أتذكره. قال "ليجين" ساهمًا:

- نعم. قال "أسبورن":

- قد يكون أخًا له أو توأمه؟ ابتسم "ليجين" وهز رأسه:

- هذا مألوف في الرواية، لكن في الحياة.... هذا لا يحدث تقريبًا أبداً.

- لا .... من البديهي. ومع ذلك تشابه أسريّ.

- وفقًا لما لدينا من معلوماتٍ، ليس للسيد "فينابل" إخوة. كرر "أسبورن":

- أبهذا المقدار كنت تعرفه؟

- على الرغم من أنه يتمتع بجنسية إنجليزية.. لقد ولد في الخارج، ولم يصطحبه والداه إلى "إنجلترا" إلاّ عندما بلغ الحادية عشرة من عمره.

- ألا تعرف الكثير عنه وعن أسرته؟

اعترف "ليجين":

- لا.. ليس بالأمر السهل، هذا إلاّ إذا وجهنا إليه أسئلة مباشرة.... وليس لدينا أيّ مبرر يدفعنا إلى ذلك، لاشك في أنه كان من الممكن القيام بذلك بأساليب عدّة لكنه كان لا يعتزم الإفصاح بها إلى "أسبورن" تابع وهو ينهض:

- الخلاصة وبعيداً عن الشهادة الطبية هل أنت واثق من قرارك؟

– نعم ، أتصدق أن تذكُّر الوجوه أصبح بالنسبة لي شغلا لأوقات الفراغ .أبدى بعد ذلك ابتسامة خفيفة ثم واصل :

– كم من زبائن فوجئوا عندما كنت أذكِّرهم ببعض التذاكر الطبية الخاصة بهم والتي ترجع إلى عدة شهور. إن الناس يسرون عندما نتذكرهم. لقد تدربت على ذلك منذ طفولتي، حتى أصبحت عادة تكاد تكون آلية، لا تتطلب مني أيَّ مجهود .تنهد "ليجين" :

– أتمنى الحصول على شاهد مثلك. بدا السيد "أسبورن" مسروراً جدا. قال في تواضع :

– إنها هبة إلهية . . من جانبي لقد عملت على تنمية موهبتي. إذا أحضروا أمامي صنيّة عليها أشياء متنوعة، أجدني كفيلاً بتسجيلها في ذهني ثم أذكر كلَّ ما عليها بعد لحظاتٍ، الأمر الذي يدهش الكثيرين. ليس ما هو خارق للطبيعة في ذلك، إنها مجرد عادة. كما أني أيضًا حاوٍ(مشعوذ) المعذرة ما الذي معك في جيبك؟ ثمّ انحنى وأخرج من جيب المفتش منفضة سجائر ثم أردف :

– ياسيدي المفتش! إنك من رجال الشرطة؟ وضحك بابتهاج و"ليجين" كذلك. ثم تنهد "أسبورن" .

– عندي منزل جميل. يبدو أن الجيران محبون. كم من سنوات حلمت خلالها بهذه الحياة لكني أعترف بأني محروم من الناس. كنت دائم الحركة والناس من حولي. كم تمنيت اقتناء حديقة بها فراشات وعصافير مغردة، لكني لم أفكر قطُّ في أني سوف أفتقر إلى الناس. . . . لقد توجهت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في "فرنسا" . يجب أن أعترف بأني أدركت بوضوح أن كفايتي كانت في "إنجلترا" . كانت الطبيعة مختلفة ولم تساورني سوى فكرة وهي أن أحال إلى المعاش، وهأنا حاليًّا أفكر جديًّا في شراء نصيب في

صيدلية"بورنماوث" .... بالتحديد حتى يكون لي عمل أقوم به دون أن أكون مضطرا إلى التواجد في المحل في ساعات محّددة. إلى اللقاء ياسيدي المفتش. أكرر أسفي؛ لأني لم أتمكن من معاونتك، وإذا وجدت شيئًا.... أكد له"ليجين" :

– سأوافيك به.

– مع ذلك كانت المواصفات....

– أعلم ذلك. ياللأسف لأن التقرير الطبي واضح جدًّا، ولا نستطيع وضع الأمر في الاعتبار.... أليس كذلك؟

– إيه!.... ثم ابتعد"ليجين" بسرعة وقف "أسبورن" عند السياج يتابعه بنظراته.

"تقرير طبي" ....طبيب....آه لو علم نصف ما أعرفه عمّا يخصهم.. مساكين سذًّج! طبيب.

الفصل الحادي عشر

"هرميا"أولاً ثم"كوريجان"

لقد أخطأت التصرف،لقد سرت مثل إنسان غبي. لاشك في أن"تيرزا جري" خدرتني. ومن جانبي، كنت سريع التصديق لأمور وهميّة.... خزعبلات.كنت موشكًا على نسيان كل شيء، حينئذ– مع صدى صوت– سمعت صوت السيدة"دان كالتروب" وهي تقول في إلحاح:"يجب التصرف" والكلام سهل.لا"هرميا" ولا"كوريجان" أقبلا على القيام بهذه اللعبة، ومن جانبي كنت لا أعرف أحداً سواهما إلا إذا....رفعت سماعة التليفون، وطلبت السيدة"أوليفييه" .

– آلو! هنا"مارك إستربروك" .

– نعم.
– أفي إمكانك موافاتي باسم الفتاة التي كنا معها عند أولاد عمي؟
– كنت متوقعة ذلك. اسمها "جينجر".
– هذا الاسم أعرفه، لكن أيضًا..
– ماذا؟
– لابد وأن لها لقبًا.
– من البديهي لكني أجهله، ولا أتذكر أنني سمعته ذات يوم؛ لأنه لم يسبق لي مشاهدتها. اتصل إذن بـ"رودا" واسألها. لكن هذه الفكرة لم تعجبني بالمرة.. قلت:
– لا. مستحيل. قالت:
– الأمر في منتهى البساطة. أخبرها بأنك فقدت عنوانها وأنك غير متذكر الاسم، تريد أن ترسل إليها أحد كتبك أو أن تعيد إليها منديلها الذي أعطته لك؛ لأنك كنت تنزف من أنفك، أو أنك تريد موافاتها بعنوان صديق لكَ يرغب في ترميم إحدى لوحاته.. ألا يناسبك أحد هذه الأراء؟ أترغب في المزيد؟
– لا.. شكرًا جزيلاً. هذا كافٍ جدا. ثم أخفضت سماعة التليفون....ورفعتها في الحال لكي أتصل بـ"رودا".
– "جينجر"؟ إنها تسكن في "ميوز"... 45 "كالجاري بلاس" انتظر لحظة لكي أعطيك رقم تليفونها. "كابريكورن35987".
– نعم شكرًا لكن ما لقبها؟ إني أجهله.
– لقبها "كوريجان" "كاترين كوريجان". آه ما الذي قلته؟
– لاشيء يا "رودا" شكرًا.. يا لها من مصادفة! "كوريجان"؟ قد يكون فالأحسنًا. طلبت "كابريكورن 35987".



تواجدت "جينجر" في مواجهتي على مائدة في "كاكاثويه بلان" حيث التقينا وفقًا لموعد سابق. وجدتها بشعرها الأحمر المنكوش وبقع النمش والعينين الخضراوين اللامعتين. كانت في زي فنانة لندنية عبارة عن بنطلون ضيق جدا وقميص من قماش الجرسيه وحذاء أسود في قدميها، ومع ذلك كانت "جينجر" ذاتها وكنت معجبًا بها كثيرًا. قلت:

– لقد تعبت في العثور عليك. تخيلي إني كنت قد نسيت اسمك. وسردت القصة التي قلتها من قبل لـ"هرميا" . لكن لم أحتج إلى وقت طويل؛ لأنها تعرف "الحصان الشاحب" والمقيمات به. وبعد أن انتهيت من الكلام معها أخفضت عيني حتى لا أرى مزاحها أو عدم تصديقها. سألتني في حماس:

– هذا كل ما جئت من أجله؟

–نعم.

– وما الذي تعتزم القيام به؟

– أتتوقعين أنه ينبغي أن أعمل شيئًا ما؟

– من البديهي. لا بد وأن يتصرف أي شخص؟ لا ينبغي أن ندع الفرصة حتى تختفي العصابة دون أن نبدي أيٍّ رد فعل.

– لكن ما الذي في إمكاننا عمله؟ كانت ترتشف مشروبها على جرعاتٍ صغيرة، مقطبة حاجبيها. شعرت بحرارة تسري في جسمي، ولم أكن بمفردي في تلك اللحظة.

– عليك أن تسعى إلى معرفة معنى ذلك.

– موافق، لكن كيف؟

– يبدو لي أنّ هناك مؤشرًا أو ربما اثنين، وربما أتمكن من معاونتك.

– كيف يحدث ذلك؟ و عملك؟

– عندي فرصة بين ساعات العمل. وقطبت حاجبيها من جديد. وأخيراً قالت:

– "بوبي" الفتاة التي شاهدتها وقت العشاء، من البديهي– وهو متحمل جدا– أنها تعرف عن الأمر ولو القليل.

– نعم، لكنها خائفة ولا ترغب في الكلام.

– هنا أستطيع أن أعاونك؛ لأنها ستصارحني بما لا تبوح لك به. أفي وسعك التصرف بحيث نقوم بعملية تعارف؟ صديقك وهي وأنت وأنا؟.... ومشاهدة أخرى وقت العشاء، لكن تُرى هل سيكون ذلك مكلفًا لك؟ طمأنتها بشأن هذه الفكرة.

– أما بالنسبة لك.... ثم صمتت برهة.

– الأفضل أن تهتم بـ"توماسينا توكيرتون".

–لكنها توفيت.

– وهناك من كان يتمنى موتها، إذا كانت ماتت حقا. ولقد تم تدبير ذلك في"الحصان الشاحب". يبدو أن هناك احتمالين. الحماة أو الابنة التي تشاجرت معها. هذا الشاب الذي سحرته.... ربما أنها كانت تريد أن تتزوجه. وهذا ليس من شأن الحماة.... ولا الفتاة الأخرى، إذا كانت قدأحبت الشاب. من الممكن أن يكون أحدهما قد تواجد في " الحصان الشاحب". بذلك يجب أن نعرف شيئًا ما عن هذا الأمر. ما اسم الفتاة؟

–"لو" على ما يبدو.

– إنها ذات قوام معتدل وشعرها أشقر مفرود. الوصف منطبق على الفتاة.

– قد تكون"لو إليس" وهي كذلك تمتلك ثروة هائلة.

– لكنها لا توحي بذلك.

– إنها تبدو هكذا. لكن الحقيقة غير ذلك أيضا، وفي إمكانها دفع أجور

للساحرات الثلاث. لا أعتقد أنهن يعملن بدون مقابل.

– يبدو لي أنا أيضًا أن مثل هذا الأمر غير محتمل.

– تقابل أنت مع الحماة. إنها مهمتك. لا شأن لي بها.

– لاأعرف أين تسكن؟

– "ليجين" كان يعرف "تومي" وفي إمكانه أن يدلك في أي منطقة كانت تسكن. لكن فعلاً.. إننا نتصرف بغباء. لقد قرأت نعيها في جريدة الـ"تايمز" ومن السهل العثور على العنوان.

– حسنًا.. يلزمني أي ادعاء، أي هدف للاتصال بها أي بالحماة. لم ترتبك "جينجر" لذلك أيضًا، بل قالت له:

– إنك مؤرخ.... كما إنك تحضر مؤتمرات.... وسوف تُسر بل وتفتخر السيدة "توكيرتون" لاستقبالك عندها.

– والموضوع؟

– اهتمامك بالمنزل. لو كان قديمًا هناك ما يلزم إجراؤه.

– لا أفهم شيئًا في هذا الأمر.

– وكيف ستدرك هي ذلك. طبيعة الناس أنهم سرعان ما يقتنعون أن مبنى يرجع إلى قرن من الزمان لابدّ وأنه يثير اهتمام شخص مؤرخ أو عالم آثار ....ولابدّ وأن عندها لوحات قديمة لا تهمها. اطلب منها موعد لقاء .... كن لطيفًا وأخبرها بأنك تقابلت مع ابنتها.... زوجة ابنها.... و.... فجأة، إلماع بخصوص "الحصان الشاحب". ليتك تبدي شيئًا من الشُؤم.

– وبعد؟

– عليك بمراقبة رد الفعل عندها. لاحظ إذا كانت ستبدو مرتبكة عند ذكر "الحصان الشاحب". أؤكد لك أنها لا تعرف كيف تخفي مشاعرها.

– وإذا.... بدا عليها أيّ انطباع؟

– ستعرف.. ويكفي أننا على الطريق السليم، وبعد الحصول على دليل نتصرف. وأضافت بعد برهة تفكير:

– شيء آخر، لماذا حكت لك الفتاة "جري" كل ذلك؟ لماذا تهتم على هذا النحو؟

– عن غباء.

– لا، ليس هو السبب. ولماذا وقع اختيارها عليك؟ أتساءل إذا ما كانت ستفيدنا في هذا الموضوع. أم أنها لها ارتباط بالأمر.

– خيط أو رباط؟

– لحظة .... حتى أرتب بعض أفكاري. انتظرت. "جينجر" حكّت رأسها بشدة.

– لو سلمنا بأن كل ذلك سوف يتم على هذا النحو الذي توقعناه، "بوبي" تعرف– ربما القليل– ما يدور في "الحصان الشاحب" . إنها تبدو لي من هذا النوع من الفتيات اللاتي لا يُعتمد عليهنَّ. ربما أن أحدهم سمعها تتحدث معك وإذا بأحدهم يطالب في جفاء بأن "تغلقه" (ربما يقصد بذلك الأوبرج) وفي اليوم التالي تأتي أنت لكي توجّه لها أسئلة، ومن جانبها تفزع وترفض أن تجيب ولكن كل ذلك معروف. لماذا تبدي فضولك حاليا؟! إنك لست من رجال الشرطة، لعلك زبون عابر.

– لكن....

– إنه منطق سليم. لقد ذاع خبرٌ بأنك تريد أن تستغل هذا الموقف.... ولقد ظهرت في حفل "ميش" واصطحبوك إلى "الحصان الشاحب" بناءً على طلبك بالتأكيد، وماذا حدث؟ "تيرزا جري" تقوم بلعبة كبيرة.

– نعم. ممكن. أتعتقدين يا "جينجر" أنها كفيلة بتنفيذ ما تقوله؟

– بحسب رأيي لا. لكن توجد أمور تدعو للدهشة خاصة بالنسبة لموضوع

التنويم المغناطيسي(الإيحائي) هذه القدرة الفائقة على الإيعاز، لكن فيما يخص "تيرزا" .... لا أعتقد أنها على حق.... ومع ذلك أخشى أن تكون على حق.

– نعم.

– في إمكاني مقابلة "لو" والوصول إلى أعماقها، لكن الأهم هو مقابلة "بوبي" . وهكذا سارت الأمور على ما يرام. وكان "ديفيد" حرًّا بعد ثلاثة أيام. اتفقنا على اللقاء في المسرح. وصل و"بوبي" من بعده. وقع اختيارنا على "فانتيزي" لتناول العشاء وبعد لحظات اختفاء ظهرت كل من "جينجر" و"بوبي" في أبهى هيئة. لم نتناول خلال الوجبة إلا موضوعات عادية. ثم بعد انتهاء السهرة، اصطحبت "جينجر" إلى منزلها. قالت وقد بدت منشرحة:

– الأمر ليس مثيرًا. لقد رأيت "لو" . وكما يبدو لي أي من وجهة نظري أن الشاب الذي تشاجرت من أجله شاب تافه تتنازعه الفتيات. كان وقتئذ يحضن "لو" عندما دخلت "تومي" إلى المشهد. غضبت "لو" وادّعت أنه تخلّى عنها من أجل مال "تومي" . لكن من يسمعها وهي تدلي بالموضوع: يدرك أن الأمر كله مجرد اشتباك.

– اشتباك. لقد انتزعت شعر "تومي" .

– إني أكرر لك ما قالته لي.

– أرى أنها كانت ثرثارة.

– إنهما يعشقان ترديد أبسط الأمور الخاصة بهن لمن يفتح أذنيه لسماعها. في الواقع أصبح لـ"لو" صديق صغير لكنه أقل ظرفًا عن السابق. وهي تحبه كثيرًا وعلى ما يبدو أنها لا تعرف "الحصان الشاحب" ؛ لأنها لم تبد أي اهتمام عندما تكلمت عنه أمامها. أعتقد أنه يجب أن نمحو اسمها من على القائمة التي معنا.. وأنت ماذا فعلت مع الحماة؟

– إنها في رحلة للخارج وستعود منها غداً. لقد طلبت من سكرتيرتي أن تكتب لها خطاباً لأخذ موعدٍ معها.

– رائع. لقد بدأت الحركة. وماذا تم مع السيدة التي طلبت الأب "جورمان"؟ هل ماتت؟ ومن كانت بالضبط؟

– نعم لقد ماتت، ولا أعرف الكثير عنها، كانت تدعى "دافيس" على ما أعتقد.

– إذا تمكنا من معرفة المزيد من المعلومات عنها، فسوف نعرف كيف حصلت على المعلومات التي صارحت بها الأب "جورمان". وفي اليوم التالي وفي ساعة مبكرة جداً من الصباح طلبت "كوريجان" هاتفياً ووجهت له هذا السؤال.

– لحظة، لقد سجلت بعض التفاصيل.... السيدة "دافيس" تدعى في الواقع "آرشيه" وكان زوجها قاطع طريق. كانت قد تركته وعادت إلى اسم والدها.

– أين هو حاليا هذا الـ"آرشيه"؟

– لقد توفي.. شخص لا ذكرى له. مجرد لص صغير (خطاف).. مجرد نشال للسلع المعروضة.

– لا فائدة من هذه المعلومة؟ هل هي تخفي شيئاً؟

– لا. المنزل الذي كانت السيدة "دافيس" تعمل فيه معه– C.R.G – عبارة عن شركة إعلانية لا تعرف عنها الكثير. شكرت وأخفضت سماعة التليفون.

الفصل الثاني عشر

ثم حدث أن "جينجر" اتصلت بي هاتفيا بعد ثلاثة أيام. وقالت:

– عندي لك شيء ما : اسم وعنوان. اكتب. أمسكت بمفكرتي.

– هيا..

– "برادلي" – " 87 مينسبال سكوير بيلدينج بيرمينجهام" .

– أنا لا أدرك شيئًا في كل ذلك.

– وأنا مثلك. وأشك في إذا كانت "بوبي" تعرف بالضبط معنى ذلك.

– "بوبي" ؟ هل....؟

– نعم، لقد عملت على دراستها جيدا كما قلت لك. ولقد قمت بذلك بكل سهولة، بعد أن تآلفت معي.

– كيف تصرفت معها؟ ضحكت "جينجر" . وقالت :

– أسرار نسائية، لن تفهمها. لقد تناولنا الغداء معًا.. حدثتها عن حياتي العاطفية الخاصة.... وما صادفته من عقبات....رجل متزوج مع سيدة مستحيل.... كاثوليكية رفضت الطلاق.... جاعلة من حياته جحيماً. هذا بالإضافة إلى أنه مشلول يعاني الآلام، لكنْ مقدر له أن يعيش مائة عام. ليتها تموت. وأضفت أني فكرت كثيراً في "الحصان الشاحب" ، لكنني أخشى أن تكون أسعاره مرتفعة. حينئذٍ قالت "بوبي" إنها سمعت عنه فما كان مني أن قلت لها إن لي آمالاً. ما هي حقيقة عملك الكبير– حبّوب– لا أتمنى له الموت. أبديت الرغبة في دفع جزء مقدم مبدئيًا. فقالت لي إنه سوف يقبل. لكن كيف أتصرف؟ حينئذ أعطتني "بوبي" اسمها وعنوانها قائلة : "اذهبي إلى هذا العنوان للتأكد من التفاصيل المالية" .

– شيء رائع، خيالي.

– فعلاً.

– هكذا قالت لك في غير خوف؟ قالت "جينجر" وقد نفد صبرها :

– إنك لا تفهم جيداً. لا قيمة لما قالته. كما أنه بعد كل

ذلك–يا "مارك" – إذا وثقنا في صحة هذا الأمر فلابد من إجراء إعلان. يجب تجديد الزبائن.

– إننا مجانين.

– ليكن. هل ستتوجه إلى "بيرمينجهام" للقاء السيد "برادلي"؟

– لقد سبق وقلت نعم. سأتوجه لمقابلته، هذا إذا كان موجوداً؛ لأني كنت غير مصدق، ولكني كنت مخطئًا في ذلك. كان الـ "مينسبال سكوير بيلدينج" عبارة عن خليّة هائلة، في كل خانة منها مكتب. كان الرقم الثامن والسبعون يقع في الطابق الثالث وعلى الباب الزجاجي يوجد بحروف باللون الأسود. ("برادلي" س.ر). وتحتها بحروف صغيرة: " ادخل دون أن تقرع". دخلت وتواجدت في ملحق صغير فارغ وفي مواجهتي باب موارب عليه كلمة "خاص". سمعت صوتًا من الداخل يقول:

– ادخل. دخلت. وجدت في هذه الحجرة الفسيحة مكتبًا ومقعدين وتليفونًا وحافظة أوراق.... والسيد "برادلي" ذاته في ملابس سوداء.. صورة للاحترام.. قال:

– ليتك تغلق الباب من فضلك. وتفضل بالجلوس، سيجارة؟ لا؟ إذن ما الذي أستطيع القيام به؟ تطلعت إليه وأنا لا أدري من أين أبدأ حديثي. قلت:

– كم؟ لاحظت أنه فوجئ لهذه الكلمة.. سُررت لكنه مع ذلك لم يبدُ عليه أنه فكر لحظة في أن الذي تخطى عتبة مكتبه إنما هو شخص مضطرب. رفع حاجبيه وقال.

– حسنًا، حسنًا.. إنك لا تميل إلى ضياع الوقت. قلت ملحًّا:

– رد على سؤالي من فضلك. حكَّ رأسه ثم قال:

– هذا الأسلوب غير مفهوم. لنبدأ كما ينبغي. فما كان مني إلاَّ أن هززتُ

كتفيَّ وقلت :

– كما تشاء. أخبرني كيف أبدأ.

– إننا لم نتعارف أولاً، ولا أعرف اسمك.

– حاليا، إني لا أشعر بالرغبة في موافاتك به.

– حذِر؟

– حذِر.

– صفة حسنة..... وإن كانت كثيراً ما تبعث على الضيق. من الذي أرسلك إليَّ؟ ومن هو صديقنا المشترك؟

– أيضًا لست قادراً أن أذكره لك.. أحد أصدقائي يعرف أحد أصدقائك.

– العديد من زبائني يأتون إليَّ بنفس الطريقة، إذ إن بعض المشاكل أو المواضيع ذات طابع حسَّاس. أعتقد أنك تعرف مهنتي؟ ولم ينتظر مني ردًّا إنما أفادني بها :

– .... إني شخص يهتم بالخيول. هل لك اهتمام بذلك؟ أجبت :

– أنا لا أشترك في سباق الخيل. قال :

– هناك بعد السباق الصيد أيضًا وغيره، إني بالإجماع أهتم بالنواحي الرياضية، كذلك الرهان. توقف لحظة.... ثم بنبرة هادئة قال :

– .... هل تفكر في جواد معيّن....؟ قلت :

– في "حصان شاحب".

– آه، حسنًا جدًّا، ممتاز. لكن ليتك تهدأ. ليس من مبرر في طلبك. أردفت في جفاء :

– ماذا تقول؟ حينئذ أظهر السيد "برادلي" مزيداً من الهدوء، ثم قال :

– إني مدرك جيداً لمشاعرك. لكني أؤكد لك أنه ليس هناك ما يدعو للقلق. أنا محامٍ.... مشهور بالتأكيد وبخلاف ذلك ما تواجدت هنا، لكني أعرف

القانون ولا تشك في ذلك، وكل ما أحكم به قانوني وشرعي.. كل ما أقوم به تسجيل المراهنات. ومن الممكن المراهنة على أي شيء: إنها سوف تمطر غداً أو أن الروس سوف يوفدون رجلاً إلى القمر أو أن زوجتك ستضع توأمين. في إمكانك المراهنة على أن السيد(م.ب) سيموت قبل حلول عيد الميلاد المجيد، أو أن السيدة(س) ستعيش حتى سن المائة. وأنت في قيامك بذلك ترتكز على حاستك أو بديهتك .شعرت بأني أمام طبيب جرّاح يطمئنني قبل إجراء الجراحة اللازمة لي. قلت في ارتياح:

– أنا لست مدركًا لقصة هذا "الحصان الشاحب".

– وهل هذا يسبب لك ضيقًا؟ نعم إن كثيرين يفكرون كثيراً في أمره. وبصراحة أنا نفسي لا أفهم في هذا الأمر شيئًا لكن النتائج تأتي دائمًا مذهلة.

– أليس في إمكانك منحي المزيد من المعلومات عنه؟ وظهرت حاليا على حقيقتي حيث كنت حذراً وقلقًا.... وفزعًا. ولاشك في أن مثل هذا الوضع ليس جديداً على السيد "برادلي".. سألني:

– ألا تعرف المكان؟ فكرت بسرعة. قد يكون تهوراً مني إذا كذبت.

– آه.... كنت ذات يوم مع بعض الأصدقاء .... واصطحبوني إلى هناك.

– أوبرج قديم تم ترميمه وتجديده بطريقة ممتازة.إذن لقد تعرفت عليها؟ أقصد صديقتي الآنسة "جري".

– نعم، نعم، بالتأكيد.... امرأة خارقة، غير عادية.

– أليس كذلك؟ غير عادية حقا. وهي تدهش محدثها، ولها من المواهب ما يفوق العقل.

– لا بل وما تقوم بسرده.... أمور.... مستحيلة.

– هذا هو الواقع. إن ما تدَّعي إدراكه أو القيام به مستحيل. الجميع يحكم بذلك. على سبيل المثال....أمام المحكمة.... وكانت عيناه السوداوان

تتفحصان ما بداخل عينيّ ثم كرر:

– . . . .قد يبدو ذلك شاذا أمام المحكمة؛ لأن هذه السيدة لو نهضت واعترفت بأنها كفيلة بالقتل عن بعد أو بدافع السلطان أو الإرادة الخارقة أو بأيّ تعبير يروق لها فلن تؤخذ كلامها بجدية وحتى لو كانت مؤهلة لذلك (الأمر الذي لا يصدقه الأذكياء مثلك ومثلي) لن تقبل قانونًا؛ لأن في نظر القانون لا وجود لوفاة تتم بالاغتيال عن مسافة بعيدة . . . . أمور سخيفة . . . . ولو فكرت في الأمر قليلا، لوجدت أن الجمال يكمن هنا . . . . كان يسعى إلى طمأنتي بشتى الطرق . . قال:

– إذا عملت على تشجيع "تيرزا جري" على استخدام مالها من قوة في إلحاق الشر بالناس، فلن أتعرض لأيّ مساءلة قانونية. لكن سرعان ما يغلب عندي طابع الشك. صحت:

– مع ذلك، إني لا أصدق كلمة واحدة من هذه الأمور الخيالية. قال:

– وأنا معك في الرأي، "تيرزا جري" تتمتع بمواهب تمنحها قدرات عجيبة يصعب تصديقها. إنها اسكتلندية وما يسَمى بالرؤيا الثانية شائع عند هذه الفئة. ثم مال عليّ وقال في غير تردد:

– " تيرزا" تعرف مسبقًا موعد وفاة الشخص. إنها موهبة تتمتع بها وحدها. ثم انتصب وتفرَّس فيّ . . انتظرت.

– . . . . والآن لنتخيل موقفًا. أحدهم سواء أنت أو أنا يريد معرفة متى ستموت العمة" إليزا" . يجب أن تعترف بأن مثل هذه الموهبة تفيد في الحصول على المعلومة، أو أن نسمع بأننا سنحصل في شهر نوفمبر"تشرين الثاني" القادم على مبلغ من المال. إذا وفقنا في ذلك ففي إمكاننا عمل أي مشروع. الموت أمرٌ يتعرض له الجميع، والعزيزة المسنّة" إليزا" من الممكن إطالة عمرها(إن صح القول) عشر سنوات أخرى بمعونة الأطباء. إذن مثل ذلك

يعجبك لاشك في ذلك، لأن الأمر يهمك؛ لأنك تحبها. وكما قلت لك، إني لاعب أراهن على أيّ شيء. عندما تتقابل معي بالتأكيد لن تراهن على وفاة السيدة العجوز لأن مثل ذلك الرهان يتعارض مع مشاعرك الرقيقة. إننا نقدم ذلك بطريقة أخرى.. أنت تراهن على مبلغ معيّن بأن العّمة" إليزا" ستكون بصحة جيدة في عيد الميلاد المجيد، وأنا من جانبي أراهنك على العكس. "وكانت عيناه تواظبان على تفحصي.... ومحاولة تسجيل انطباعاتي ثم واصل:

- .... الأمر بسيط ولا رجعة فيه أليس كذلك؟ سنتناقش بشأن وفاة العمة. من جانبي أقول إنها ستموت وأنت تعترض، لذلك لابد أن نحرر عقداً ويوقع كلانا عليه، وأحدّد لك موعداً" أيَّ تاريخ"مثلاً بعد خمسة عشر يومًا منذ ذلك اليوم. وبعد أو قبل هذا التاريخ سوف نعلن جنازة العّمة" إليزا" . من جانبك تقول"لا" . إذا كنت على حق.... فسأدفع لك، وإذا أخطأت تدفع لي. في هذه الأثناء كنت أشعر بأن هذا الرجل يرغب في التخلص من هذه السيدة العجوز الثريّة. لا، كان أسهل من ذلك أن أتخيل أني وقَّعتُ على بياض على عقد لشخص محتال وبالتالي تمنيت لو استطعت قتله. لكن ليست لي الشجاعة اللازمة، لكني مستعد للتضحية بأي مبلغ .... نعم.... وكنت أتكلم بصوت أجش، ولكن في ثقة كاملة:

- شروطك؟ غير أن السيد"برادلي" غيَّر موقفه، وأصبح مرحًا يكاد يكون مازحًا في ظُرف.

- لقد فاجأتني، ما هو المبلغ الذي طالبتني به؟ لم أر قط من يبدأ الموضوع بهذه السرعة.

- شروطك.

- هذا متوقف على عناصر عديدة. في كثير من الحالات، للمبلغ الذي

يقـدمه الزبون دور أساسي. باختـصار أنا لا أراهن مع الفـقراء.... عدا في موقف مثل الذي حدثتك عنه، موقف العمـة" إليزا" حيث الثروة هي موضع اعتبار، والشروط تتم باتفاق مشترك بحيث يكون لكل طرف منفعته في الموضوع. وعامة يبدأ الرهان بخمسمائة مقابل واحد.

– خمسمائة ....هذا مبلغ باهظ.

– إني أخاطر. إذا كانت"إليزا" مسجلة للرحيل ستعرف ذلك مسبقًا، قد تعرف من قبل ولكنك لم تأت للقائي. التنبؤ بوفاة شخص خلال أسبوعين يجلب رهانا طويلا. خمسة آلاف مقابل مائة، ليس في ذلك تجاوزات.

– وإذا خسرت؟ هزّ"برادلي" كتفيه.

– تكون في ذلك خسارة وعليّ أن أدفع.

– وإذا خسرت وامتنعت عن الدفع؟ أغلق"برادلي"عينيه إلى النصف. قال في وداعة:

– لا أنصحك بذلك.شعرت حينئذ بقشعريرة تسري في جسمي.. نهضت.

– أنا.... لابد من التفكير أولاً. أردف السيد"برادلي" وقد عاد إلى بشاشته:

– بالتأكيد.. لا داعي للتسرع أبدًا، خذ الوقت الكافي.... في حالة اتخاذك قرارك، عد لكي ندرس الموضوع معًا من كل جوانبه. تمّهلْ، خذ الوقت الكافي.خرجت، وصدى هذه الكلمات مازال يرن في أذني: "تمهل.. خذ الوقت الكافي" .

الفصل الثالث عشر

قررت إجراء حوار مع السيدة"توكيرتون" في غير حماس؛ لأني كنت أرى في ذلك تهوراً على الرغم من أنه رأي"جينجر" . في البداية كنت أشعر بأني

لست مؤهلاً لهذه المهمَّة التي بدأتها، إذ كنت أشك تمامًا في مرونتي للقيام بهذه المسرحية. وكانت "جينجر" -بما لها من حماسة وقوة مفزعة تستخدمها كلما شاءت- قد منحتني كل تعليماتها بالتليفون.

– الوضع سيكون بمنتهى البساطة. إنه منزل "ناش" ولكن ببيان غير مألوف لديها. إحدى مواهبها وإلهامها الغوطي الجديد.

– وما هدف رغبتي في لقائها؟

– إنكَ تعتزم تقديم مقالة أو إصدار كتاب عن العوامل التي تؤثر في العمارة أو شيء من هذا القبيل.

– يبدو لي أنه أسلوب خدعة البلهاء. أردفت "جينجر" بقوة:

– أمرك عجيب! إن أكثر الناس جدّية من لا يكثرون من المجادلات ، يكتبون ما يخطر على بالهم في مجال الأدب أو الفن وفي وسعي سرد فقرات عديدة وأبواب كاملة من السخافات.

– من أجل ذلك أراك جديراً بإجادة هذا العمل أكثر مني.

– إنك تخطئ في ذلك. في إمكان السيدة "توكيرتون" أن تبحث في دليل التليفون الدولي لتعثر عليه فيه ولست أنا. اعترفت بهزيمتي وليس بإقناعي. في بداية لقائنا بـ"برادلي" . "جينجر" وأنا تداولنا في الأمر، ولقد بدا له الأمر لا يصدق لكن بنسبة أقل مني.

– لقد علمنا حاليا أنه يوجد قطاع مكلف يعمل على اختفاء الناس.

– بطريقة تفوق قدرة البشر.

– إنك متشبث بأفكارك. كل أساليب "سيبيل" تربكك: تعاويذها وشعوذتها التي ترتكز عليها. إذا كان "برادلي" قد تظاهر بأنه منجم مزيف، لكنه يتخذ وضعًا آخر بمعرفته القليل من أصول القانون. . . . لكن تلك السيدات الثلاث المقيمات في " الحصان الشاحب" تمكنَّ من استخدام أساليب

وجدت رواجها.

– إذا كنت مقتنعة، إذن لماذا مقابلة السيدة "توكيرتون"؟

– احتياط إضافي. إننا نعلم أن" تيرزا" تقول إنها قادرة على العمل.... ونحن نعلم بأي طريقة نستطيع تنظيم الجانب المالي للعملية. لدينا حاليا بعض التفاصيل الخاصة بثلاثة من الضحايا، ويجب علينا الوقوف على وجهة نظر الزبون.

– وإذا حدث ولم تكشف السيدة "توكيرتون" عمّا يشير إلى أنها كانت زبونة؟

– نجري بحثنا في مكان آخر .لذلك تواجدت أمام باب" كاراواي بارك" وهو قصر متواضع، بحسب رأيي غير خاضع لنظام "ناش"لكنني لم أحصل على بيانات كافية عن هذا الموضوع. استجاب للقرعات على الباب خادم بائس في ملابس بالية .أدخلني إلى صالون مؤثث بعناية فائقة. وكل ما كان يحيط بي كان خاليًا من الذوق. لمحت لوحتين خاليتين من الجمال وكسوة الأثاث كانت قماشًا من البروكار الأصفر غيرأن وصول السيدة "توكيرتون" جعلني أتخلّى عن الاستمرار في فحص المكان .كنت لا أدري ما الذي سوف يصادفني، عندما فوجئت بالسيدة في مقتبل العمر، عادية ولا تتميز عن غيرها في شيء. وحتى الصبيية كانت لا يبدو صفتها المميزة. كانت شفتاها نحيفتين على الرغم من اللون الأحمر الذي طلتهما به. أما عيناها فكانتا بلون سماوي. على ما يبدو أنها من تلك الفئة من النساء اللاتي لهن عادة توزيع بقاشش ضئيلة، ومن تشبهها من السيدات يرتدين عامة أفخر الملابس وتتزيّن بإتقان.

– السيد "إستربروك" ؟لقد أبهجتها زيارتي، وهو أمر بديهي.

– لقد سعدت للقائك ولأنك تهتم بمنزلي، وهذا أكيدُ لأني علمت من

زوجي أن المنزل مشيّد على طراز "ناش" لكن لم يخطر على بالي قط أنه سوف يجذب انتباهك ذات يوم

– أتصدقين ياسيدتي أنه ليس على طراز "ناش" . . . .لذلك. . . . فكان منها أنها خلصتني من ارتباكي بقولها :

– إني أجهل تمامًا كل ما يخصّ . . . . الفن المعماري. . . . والعلوم المختصة بالآثار. . . . لكن أرجو ألاّ تتحامل أو تؤاخذني. لم أتحامل عليها داخليًّا، بل بالعكس لقد كنت في غاية الامتنان.

– من البديهي أن هذه الأعمال التي تثير الاهتمام كلها جذّابة. . . . قلت لها :

– إننا معشر المتخصصين مزعجون .حينئذ صاحت وسألتني إذا كنت أرغب في تناول الشاي قبل زيارة المنزل أم في تفقد المنزل قبل تناول الشاي. لم أفكر في مثل هذا الاحتمال. كانت زيارتي محدّدة في الساعة الثالثة والنصف، لكني فضلت البدء بالتجول في الفناء وتفحصه من الخارج أيضًا. قادتني وكانت خلال تجولنا لا تكف عن الثرثرة، الأمر الذي أفادني كثيرًا وأتى لنجدتي. قالت لي إن زيارتي جاءت في وقت مناسب؛ لأن المنزل معروض للبيع. هكذا قالت معبرة عن قولها :

– المنزل فسيح جدًّا بالنسبة إليَّ. . . . منذ وفاة زوجي. . . . كنت أودُّ ألاّ تراه فارغًا. إن المنزل الذي به سكان تزداد قيمته أليس كذلك يا سيدي؟ في أعماقي، أفضله غير محتل من الناس(مسكونًا) بل وخاليا من الأثاث. لكن المفروض أن مثل هذه الخواطر لا يليق إعلانها. سألت مضيفتي إذا كانت تعتزم البقاء في هذه الأنحاء.قالت :

– لست أدري بالضبط حتى الآن. إني في حاجة إلى القيام برحلة أرى فيها الشمس؛ لأني أمقت هذا الجو الحزين، وأتمنى أن أذهب إلى "مصر" لقضاء

الشتاء هناك، كنت قد توجهت إليها منذ عامين، إنها رائعة! لكن كم إنني غبيّة، لاشك في أنك تعرفها عن ظهر قلب. في حين كنت أجهل كل شيء عن "مصر" وأخبرتها بذلك. قالت:

– أنا لا أصدق شيئًا من كل ذلك. هذه حجرة الطعام.إنها ثُمانية الأضلاع. هل تعبيري هذا صحيح؟ أيدت كلامها معجبًا. وبعد أن انتهت الزيارة، عدنا إلى الصالون. أتت السيدة "توكيرتون" لطلب الشاي الذي أحضره الخادم الذي يبدو وقد علاه الغبار.... غير أن الإبريق الفضي الذي به الشاي كان في حاجة إلى تلميع. تنهدت السيدة "توكيرتون" عندما تواجدنا على انفراد.

– لقد غيّرنا الخدم اليوم. بعد وفاة زوجي، طلب مني الزوجان اللذان كانا يقومان بخدمتنا الانسحاب بحجة أنهما بلغا سن المعاش.... وأصبحا غير قادرين على العمل، لكنني علمت أنهما يعملان في مكان آخر، على الرغم من كل ما كانا يحصلان عليه من مزايا. نعم، من جانبي كنت أفكر فيما تدل عليه العينان ذواتا اللون الأزرق الفاتح والشفتان الدقيقتان من بخل شديد وتقتير، ولم تكن هناك صعوبة في جعل السيدة "توكيرتون" تتكلم، لأنها كانت تميل إلى الثرثرة. لذلك تمكنت من الحصول على معلومات كافية عنها وذلك بالتظاهر بالإصغاء التام لها تارة وبكلمة تشجيع تارة أخرى. كذلك علمت أيضًا أنها كانت قد تزوجت من "توماس توكيرتون" الأرمل قبل ذلك بخمس سنوات. وكانت تصغره سنًا بكثير. كانت قد تقابلت معه في أحد الفنادق الكبرى على شاطئ البحر، كانت تكثر التردد عليه.. لقد فلتت منها هذه المعلومة لا إراديًا. كان لهذا الرجل ابنة تدرس في إحدى المدارس الموجودة في المنطقة. كان "توماس" المسكين يعيش بمفرده إذ كانت زوجته قدتوفيت منذ سنوات عديدة تاركة إياه وحيدًا وكان يفتقر إليها كثيرًا.

– ومن البديهي، لم أتمكن من الحصول على صديق خاص بي في أثناء

الفترة الأخيرة من مرضه. ترى هل "توماس" كان قد شعر بعلاقات زوجته ببعض الرجال وبالتالي نفر من ذلك؟ وهو الأمر الذي يوضح نصوص الوصية التي طالبت "جينجر" بتوصيلها إلى الإدارة العامة حيث منح أموالا للخدم القدامى المسنين وللحفيدات ومعاشا لزوجته- مناسب لكنه ليس سخيًّا، وهو عبارة عن أرباح مبلغ معين، أما ما بقي من أمواله وممتلكاته وتقدر بل وتتجاوز مائة ألف جنيه لابنته "توماسينا آن" إلى أن تبلغ سن الرشد ولكي تنتفع به عند زواجها، وإذا توفيت قبل بلوغها سن الرشد يعود هذا المبلغ إلى حماتها. على ما يبدو أن لاوجود لأي فرد آخر في الأسرة. وكان واضحًا أن السيدة "توكيرتون" موافقة على العرض؛ لأنها تحب المال. من البديهي أنها عاشت حياة الفقر قبل زواجها من الأرمل الثري. لقد عانت الضيق لفترة طويلة مع زوج عليل، وكانت تتطلع إلى ذلك اليوم الذي ستتحرر فيه لاسيما أنها مازالت شابة وثريّة أكثر مما كانت تتمنى. وجاءت الوصية بالنسبة إليها حاملة خيبة أملٍ. كانت تأمل في الحصول على ما هو أكثر من معاش ضئيل. كأن تحلم برحلات بحرية فاخرة وفساتين أنيقة وحُليّ أو ربما الفرحة بأن يكون لها مال مودع في البنك. ولقد منحت الابنة كل شيء.... والابنة لا تحب حماتها ووافتها بذلك تلك الفتاة التي ستصبح ثريّة إلاّ في حالة.... إلاّ.... هل كان ذلك كافيًا؟ هل أصدق أن هذه السيدة الأنيقة تخفي بداخلها هذه المشاعر المنفّرة وهي أن تسعى بمعاونة " الحصان الشاحب" إلى قتل فتاة في مقتبل العمر؟ لا، من الصعب عليَّ تصديق مثل هذا الأمر. ومع ذلك كان عليّ القيام بدوري.. قلت فجأة وقد تكون نبرتي جافة وقتئذٍ:

– يبدو لي أني تقابلت مع ابنتك أو بالأصح مع ابنة زوجك. ألقت إليّ نظرة دهشة لكنها اهتمت للأمر وقالت:

– "توماسينا"؟ حقًّا؟

– نعم في "شيلسي" .

– آه "شيلسي" .هذا لا يدهشني أبدًا (أطلقت زفيرًا) آه من بنات اليوم ليس في وسعنا تغيير الأوضاع، لئلا يغتم والدها. لم يكن بيدي أي تصرف، لأنها لم تسمع لي أبدًا(تنهدت مرة أخرى)؛ لأنها كانت كبيرة عند زواجنا، وأنت تعلم ذلك... زوجة أب. ثم هزت رأسها. قلت لها:

– الموقف دائمًا حسّاس.

– لقد قمت بمحاولات عديدة، وتنازلت عن الكثير....

– لا أشك في ذلك....

– ومن البديهي أنه كان عبثًا، وإن كان "توم" لا يسمح لها بأن تعاملني بوقاحة إلا أنها كانت تجعل من حياتي جحيمًا، لكني شعرت بالارتياح عندما أعلنت رغبتها في إلحاح في مغادرة المنزل، لكني فهمت التأثير الذي تم في "توم" ، كما أنها استعانت بأناس جبابرة.

– يبدو.... لقد.... في الحقيقة.

– مسكينة "توماسينا" . أصلحت السيدة "توكيرتون" من تسريحة شعرها، ثم رفعت نحوي عينيها ثم قالت:

– آه ربما لا تعرف هذا الخبر لقد توفيت منذ شهر. لقد أصيبت بالتهاب حاد في الدماغ(ربما في النخاع الشوكي أيضًا) وهو مرض شائع عند الشباب.... على ما أعتقد.... موقف محزن. قلت وأنا أنهض:

– كنت أعلم أنها توفيت. أشكرك يا سيدتي؛ لأنك سمحت لي بزيارة منزلك. مدت لي يدها لمصافحتي. تقدمت ببضع خطوات نحو الباب، ثم التفت:

–.... بالمناسبة أعتقد أنك تعرفين" الحصان الشاحب" .. أليس كذلك؟ لم يدع ما بدا عندها من رد فعل إثر هذه الكلمات مجالاً للشك. لقد اتسعت

حدقتا عينيها تحت تأثير خوف شديد، وبدا وجهها شاحبًا على الرغم مما عليه من ماكياج. كررت:

- "الحصان الشاحب"؟ ماذا تقصد؟ أنا لا أعرف أي "حصان شاحب".

تظاهرت بالدهشة.

- آه.... هل أنا أخطأت؟ إنه أوبرج ممتاز ومسلٍّ جدًّا.... يقع في "ميش ديبنج". كنت هناك منذ عدة أيام.

لقد تطور وأصبح رائعًا.. يبدو لي أني سمعت اسمك هناك أو أن يكون من يحمل اسمك، والمكان يتمتع.... بشهرة ملحوظة. شعرت بالمسرة عند خروجي. لقد عكست لي إحدى مرايا الصالة وجه السيدة "توكيرتون" وهي تنظر إليَّ وقد اتسعت حدقتا عينيها. كانت مرتعبة ولقد تخيلت ما ستكون عليه خلال بضع سنوات. لم يكن وضعًا ممتعًا.

الفصل الرابع عشر

أردفت "جينجر":

- إذن إننا واثقون الآن.

- وكنا واثقين قبل ذلك.

- نعم... إنما في ذلك تأكيد. تصورت في ذهني السيدة "توكيرتون" متوجهة إلى "بيرمنجهام" لمقابلة "برادلي"، وعصبيَّة السيدة وطيبة الرجل الذي يطمئنها بأنها غير معرضة لأي مخاطر.... تخيلتها وهي تنصرف وقد رسخت الفكرة في ذهنها. ربما أنها كانت قد زارت ابنة زوجها أو أن هذه الأخيرة كانت قد حضرت طرفها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. قد يكون بشأن موضوع زواجٍ، وطوال الوقت كانت فكرة "المال" هي المسيطرة.... وليس مبلغًا ضئيلاً، وأن تؤول هذه الثروة إلى فتاة مبتذلة، ترتاد البارات برفقة

جماعة من الشبان الرعاع مثل هذا ظلم! ثم زيارة أخرى "بيرمنجهام" .... مناقشة الاتفافيات. لاشك في أن " برادلي" وجد خيطًا عندها. أخيرًا العقد الذي تم حتمًا التوقيع عليه، ماذا تم بعد ذلك؟ هنا، خانتني القدرة على التصور.... خرجت من حالة الخيال التي كنت بها، لأرى "جينجر" تتفحصني.

–إذن لقد تتبعت السيدة في "بيرمنجهام" ورتبت كل شيء؟

–نعم، وماذا بعد ذلك؟

–إن عاجلاً أو آجلاً يجب معرفة ما يدور في " الحصان الشاحب".

–كيف؟

–لست أدري.... لن يكون ذلك بالأمر السهل. لن يتكلم أحد ممن كانوا متواجدين ومن استخدموا هذا الأوبرج. هأنا أتساءل....

– أفي إمكاننا الالتجاء إلى الشرطة؟

– نعم، لقد أصبح لدينا أدلة كافية للتصرف. قمت بحكّ رأسي.

– مجرد دليل على النيّة، لكننا لا نعرف شيئًا أكيداً عن طريق التعرف.

– يجب معرفة ذلك أيضًا، لكن كيف؟

– لابد من المشاهدة العينية أو السماع وليس عن طريق الناس، لكن أين تختبئ في هذا المكان.... لأني أعتقد أو أتوقع على الأقل أن العمليّة قد تمت فيه. حينئذ انتصبت "جينجر" وهزتّ رأسها:

– هل هناك من وسيلة أُخرى؟ ليتك تقوم بدور زبون حقيقي. ألقيت إليها نظرة دهشة وقلت:

– زبون حقيقي؟

– نعم.. أنت أو أنا لا أهمية في ذلك، نرغب في التخلص من شخص ما

لذلك يجب أن يقابل أحدنا" برادلي" ويتفق معه. قلت بنبرة جافة:

– إني غير راضٍ عن ذلك. العرض لا يعجبني.

– لماذا؟

– لأن.... هذا الموقف يتضمن مخاطر قويّة.

– بالنسبة لنا؟

– ربما.... لكني كنت أفكر في.... في الضحـيّـة. لابد لنا من اسم نمنحه للشرطة، ولايمكننا اختراع أيّ اسم لأنهم بالتأكيد يتحرّون جيداً. بعد لحظة تفكير، وافقت" جينجر" وقالت:

– نعم لابد من وجود اسم للضحية وعنوان أيضاً.

– وهذا ما لا أحبه.

– ولابد لنا من مبرر قوي للقيام بهذه المهمة.قلت في هدوء:

– بل وكذلك الحصول على موافقة الشخص المختار.

– يجب عدم إهمال أي ثغرة، لكنهم كما سبق وأشرت في مأزق، ولابد من أن تتم هذه المهمة في سرية تامة.... وينبغي على الزبائن أن يكونوا على علم بوجود هذا الشخص.

–وما يثير دهشتي أكثر هو أن رجال الشرطة لم يسمعوا عن هذا "الأوبرج" قبل الآن.

–وهو بالضبط ما يدفعني إلى التفكير في أنه– بالمفهوم اللازم– موضوع هواة ولا يستخدم فيه أي مجرم محترف. والآن ليتنا نسلِّم بأن أحدنا أنت أو أنا يرغب في التخلص من شخص ما. تُرى من الذي يقع عليه اختيارنا؟ يوجد عمي" ميروين" العجوز.... ليس له وريث غيري وابن عم في "أستراليا" . سوف أحصل على مبلغ محترم عندما يضع السلاح عن يساره

لكنه تجاوز السبعين من عمره. ربما يكون من الأفضل انتظار وفاته الطبيعيّة.... إلاّ إذا كنت في حاجة ملحّة إلى المال.... ومن الصعب افتراض ذلك أو قبوله، هذا بالإضافة إلى أنني أحبه حبا جمًّا وسواء أكان عليلاً أم لا يحب الحياة ولا أرغب في حرمانه منها دقيقة... الآن من جانبك هل عندك قريب يمتلك من المال ما يؤول لك؟ قلت وأنا أهزّ رأسي:

– ولا واحد.

– يا لسوء الحظ! أمن الممكن أن تقوم بدور المطرب أم ستكون وزيرًا في المستقبل؟ يا خسارة ليتك كنت متزوجًا، في هذه الحالة كان في وسعنا القيام بسيناريو جميل. لاشك في أن قسمات وجهي كشفت عمّا حدث عندي من رد فعل لهذه الكلمات، الأمر الذي دفع بـ"جينجر" إلى قولها:

– آسفة جدًا، هل كشفت عن جرح مندمل؟ أجبتها:

– لا، هذا الموضوع لا يسبب لي أيّ ألم. هذه فترة طويلة قد مرّت عليه، وإني أتساءل إذا كان هناك من يعرفه.

– هل تزوجت؟

– نعم، كنت حينئذ طالبًا. احتفظنا بسريّة هذا الأمر. لم تكن.... أخيرًا، لو كانت أسرتي عرفت لرفضت بالتأكيد؛ لأني لم أكن وقتئذ قد بلغت سن الرشد. وعند الزواج زوّرنا في السن. مكثت صامتًا لبضع لحظات، متذكرًا الماضي.... وقلت بصوت منخفض:

– .... وبذلك ما كان هذا الموضوع قد تم. علمت ذلك حاليا. كانت جميلة وتجيد فن الإغراء ولكن....

– ماذا حدث؟

– تواجدنا في "إيطاليا" وهناك لقيت مصرعها في حادث أليم.

– وأنت .

– لم أكن في السيارة؛ لأنها كانت مع صديق لها .ألقت إليّ "جينجر" في الحال نظرة سريعة. . . . لقد شعرت بأنها فهمت أن الصدمة التي عاشت فيها هي اكتشاف أن الفتاة التي تزوجتها ليست مخلصة. عادت" جينجر" إلى الأسئلة العملية:

– هل تزوجتما في "إنجلترا" ؟

– نعم، وسجلنا الزيجة في مكتب تسجيلات" بيتربوروغ" .

– لكنها ماتت في "إيطاليا" ؟

– وهل تمّ تسجيل وفاتها في "إنجلترا" ؟

– لا .

– ماذا تريد أكثر من ذلك؟ إنها استجابة لصلواتنا. هل هناك ما هو أبسط من ذلك؟ إنك تريد أن تتزوج لكنك تجهل إذا كانت زوجك مازالت حيّة. لقد افترقتما منذ سنوات عديدة ولا تعرف عنها شيئًا. وإذا أقبلت على الزواج وظهرت الزوجة فجأة وترفض منحك موافقتها على الطلاق وتهدد بإبلاغ محبوبتك.

– ومن هي محبوبتي؟ أنت؟ شعرت" جينجر" بالحرج.

– بالتأكيد لا. وأنت تعرف عمن أتكلم، تلك السمراء التي تظهر معها دائمًا.

– "هرميا ريدكليف" ؟

–بالضبط.

– من حدثك عنها؟

– "بوبي "بداهة وهي أيضًا غنية أليس كذلك؟

– إنها ميسورة الحال، لكن .... حقا.

– حسنًا حسنًا.. أنا لا أقصد أنك ستتزوجها من أجل ثروتها، ليس ذلك من منهجك.... لكن تفكير" برادلي" القذر قد يصل إلى ذلك.... ليتنا ندرس الموقف. عليك باستجواب"هرميا" عندما تعود الزوجة غير المرغوب فيها إلى الظهور، وترفض الطلاق حبًّا في الانتقام. لقد سمعت عن" الحصان الشاحب" . أراهنك على ما تطالبني به أن"تيرزا" و"بيللا" وجدتا في مجيئنا إلى هنا نوعًا من المناورة. من أجل ذلك بدت" تيرزا" لبقة جدا معك واسترسلت معك في الحديث.قلت مؤيداً فكرتها:

– من الممكن.

– وزيارتك لـ"برادلي" عملت على تأكيد كل شيء. إنك الآن في مأزق ياعزيزي.

– إنهم سيقومون بإجراء بحث دقيق جداًّ.

– بالتأكيد .

– من الممكن اختيار سيّدة وهمية من الماضي، لكن يلزمهم تفاصيل عنها:عنوانها و...

– قد يكون غير مُجدٍ. لابد لك من زوجة.... وستكون لك. تمالك نفسك جيداً. "أنا زوجتك" !

❖❖❖❖❖

حينئذ نظرت إليها دهشًا وقد اتسعت حدقتا عيني وتساءلت كيف أنها لا تسخر مني؟ وقبل أن أسترد أنفاسي، واصلت:

– مستحيل أن تصاب بمثل هذه الطعنة. إنه ليس اقتراحًا. بعد ذلك تمكنت من النطق:

– لكنك لا تدركين ما تقولين.

– بالعكس. إن ما أقترحه من الممكن تنفيذه وهو مفيد جدًّا.... وما أقوله يتميز بأنه لا يلحق أي خطر بشخص بريء.

– إنك تضعين نفسك في الخطر.

– على الإطلاق، هذا بالإضافة إلى أن الضربة ليست في حاجة إلى وقت.

– فعلاً لقد فكرت كثيرا في الأمر، سوف أذهب إلى شقة مفروشة ومعي حقيبة أو حقيبتان عليهما بيانات غريبة وأستأجرها باسم السيدة" إستر بروك" .... ومن ذا الذي سيذهب يدّعي أني لست السيدة المذكورة؟

–كل الذين يعرفونك.

–أولئك لن يروني؛ لأني سأحصل على إجازة مرضية وسأعمل على صبغة شعري.... وبالمناسبة هل كانت زوجتك شقراء أم سمراء؟ أجبت بتلقائية:

– سمراء.

– حسنًا.. بذلك لست في حاجة إلى تغيير شعري وهو ما لا يعجبني.... تكفي إضافة كمية كبيرة من الماكياج إلى وجهي بحيث لا يعرفني أكثر الأصدقاء تقربًا مني. وبما أنه لم يسبق لأحدٍ معرفة أن لك زوجة منذ خمس عشرة سنة على الأقل فليس من يظن أنه لست أنا. إذا وقّعت على أوراق تمثل مبلغًا من المال فمن يشك في أني لب الموضوع، وأنت مجرد زبون ليس لك أي ارتباط بالشرطة. في وسعهم التحقيق من صحة زواجك بصداقتك مع "هرميا"... ولِمَ الشك؟

–إنك لا تتصورين الصعوبات التي سوف تواجهنا وكذلك المخاطر التي ستتعرضين لها.

–الخطر والتعرض له.... إنني متحمسة لمجرد فكرة أن أساعدك على الحصول

على مـئـات من الجنيـهـات مـن هذا الـ"برادلي" . ألـقـيت إليـهـا نـظرة، وإذا بي أعـجب بهـا كـثيـراً، بشـعرهـا الأحـمـر وبقـع الـنمش التي تغطي وجنتيـهـا وروح المغـامرة التي تتـمـتع بهـا. لـكـنني كنت لا أسـتطيع تركـهـا تـخـوض مـثل هذه المخاطرة.

– لا أستطيع الموافقة على ذلك يا"جينجر" . وإذا حدث شيء ما؟

– لي؟

– نعم.

– لا يهمني ذلك.

– لا . . أنا من قادك إلى هنا .

– ربما، ولا أهمـيـة لـذلك. لقـد بـدأنا معـًا وعلينا الآن أن نـعمل. إنـي امـرأه جادّة يا"مارك" . أؤكد لك أنه موضوع كريه ويجب أن تكون له نـهاية. فـهـو ليس اغتيالاً عـن حقد أوغيرة ولا حتى عن جشع أو طمع. إنه موضوع تجاري، لا صلة له بشخصية الضحية على شرط– بالتأكيد– أن تكون حقيقة. قلت:

– وهي حـقـيـقـة، لذلك المخاوف تحيط بي من أجلك. وضـعـت"جـينجـر" كـوعيـهـا على المائدة وبدأت المناقشـة، وكـانت عـقارب سـاعـة الحـائط تتـقـدم ببطء. أخيراً أعلنت الفتاة:

– هكذا أعتبر مستعدة. إني أعلم ما يسعون إلى القيام به ضدي، وصدقني لو كـان كل واحد يحـمل بداخله الرغبـة في الموت، موتي لـم يـكـتمل بعـد، أنا في أتم صحة ولا أصدق أبداً أني سوف أصاب بمرض في المخ أو في الكليتين أو في كيس المرارة بناءً على رغبة"تيرزا" أو لأن"سيبيل" تتدخل في الأمر.

– إننا لا ندري ما سوف يحدث.

– من أجل ذلك يجب علينا اكتشافه. توسلت إليها:

–اسمعيني، هيّا بنا نتبادل الأدوار. أنا أقيم في "لندن" وأنت الزبونة، وبذلك ربما نستطيع اختراع أي حجة.... هزت "جينجر" رأسها بشدة ثم قالت:

– لا يا" مارك". هذه الفكرة لا تؤدي إلى نجاح الخطة لعدة أسباب: الأول وهو الأهم أني معروفة في "الحصان الشاحب" معروفة بأني حرّة. من الممكن أن يحرِّضوا "رودا" على قتلي، ولا يجدون شيئًا. إنك زبون مثالي وعصبي وفضولي، تعجز عن التصرف بمفردك. لا، لا ينبغي تغيير أي وضع.

– هذا لا يعجبني. أنا أعرف أنك في مكان مجهول تحت اسم مستعار.... حيث لا وجود لمن يرعاك؛ لذلك أقترح بمقابلة رجال الشرطة قبل الاندفاع إلى هذه المغامرة.... وقبل البدء في أي عمل كان بهذا الشأن.

–لقد وافقت. الفكرة جيدة والآن هل تعرف أحد؟

–نعم المفتش "ليجين".

الفصل الخامس عشر

أُعجبت بالمفتش "ليجين" عند لقائي به من أول نظرة، لما يبديه من مظهر هادئ مع مرونة نادرة. لقد بدا لي صاحب خيال وكفيلا بتقبل الأمور– بلاشك– في ثقة وتسليم. قال لي:

– لقد أخبرني الدكتور "كوريجان" بما قمت به من إجراءات ولقد سُرَّ جداً. تقول إن لديك معلومات خاصة تريد أن تمنحنا إيّاها! فما كان مني حدثته عن" الحصان الشاحب" وما قيل عنه في" فانتيزي"، ثم عن زيارتي لـ"رودا"، وتوجهي إلى "تروا بارك". وكنت حريصًا على نقل حديثي مع "تيرزا جري" بكل إخلاص.. سألني:

– وهل تأثرت لما قالته لك؟شعرت بالحرج لهذا السؤال.

– ليس بالضبط؛ لأني لم أعتبرها جادّة في قولها.

– ومع ذلك يبدو لي أنك قمت بذلك.

– لاشك في أنك على حق. من الصعب الموافقة أو تصديق ما تعتقده.... حينئذٍ ابتسم "ليجين".

– لقد غفلت عن أحد التفاصيل. لقد ظهر اهتمامك فور وصولك إلى "ميش ديبنج" .... لماذا؟

–بسبب– حسب اعتقادي– ما بدا من فزع على هذه الصغيرة.

– بائعة الزهور؟

– نعم .إذ إنها ذكرت" الحصان الشاحب" بأسلوب خالٍ من أي اهتمام.... ولقد بدا لي خوفها معبراً عن أمر ما.... عندما أطلعني" كوريجان" على قائمة الأسماء، وجدت أني أعرف منها اثنين، والاثنان رحلا إلى الدار الباقية. أما الاسم الثالث فقد بدا لي مألوفا .وفيما بعد علمت أن المالكة توفيت هي أيضًا.

– السيدة"دي لافونتين" ؟

– نعم.

– لقد قررت أن أحصل على معلومات كافية عن هذه القصة.

– كيف تصرفت. حينئذ سردت له زيارتي للسيدة" توكيرتون" وأخيراً حدثته عن" برادلي" وإذ كان مهتمًّا تماماً، كرّر الاسم.

– " برادلي" ؟..... بذلك نعتبر أن له شأنًا بالموضوع؟

– هل تعرفه؟

– نعم، لقد أساء كثيراً إلينا ولاقينا العديد من المتاعب في التصرف معه؛

لأنه يعرف كيف يتملص. في إمكانه إصدار كتاب عن ألف وسيلة ووسيلة لمخالفة القانون. لكن بالنسبة إلى الجريمة.... الجريمة المدّبرة.... لم أتوقع أنه كفيل بـ.... قلت:

– الآن وقد نقلت لك حديثنا، أفي إمكانك التدخل؟

– لا؛ لأنك تكلمت بدون أي شاهد، وفي إمكانه أن ينفي كل شيء. من جانب آخر فهو على حق عندما يقول إنه يستطيع المراهنة على أي شيء كان وإن هذا في وسع أي فرد. ليست هناك جريمة يرتكبها من يراهن على تاريخ وفاة شخص ما. هذا إلاّ إذا ثبت اشتراكه في الجريمة التي تشغلنا.... ثم هزّ كتفيه.... وبعد بضع دقائق من الصمت قال:

– ماذا كان انطباع" فينابل" عليك في" ميش ديبنج"؟ هل تأثرت له.

– جداً، إنه يتمتع بشخصّية قويّة جداً. وعلى ما يبدو أن إصابته بالشلل عملت على تمسكه بالحياة أكثر فأكثر بل وأن يستفيد من حياته.

– حدّثني عن كل ما تعرفه عنه. فما كان مني وصفت له منزله والمجموعات التي يقتنيها من شتى الأنواع وعن ميوله أيضاً. قال"ليجين".

–يا خسارة!

– ماذا؟

– إن" فينابل" معّوق، بسبب إصابته بالشلل.

– وهل أنت واثق بذلك؟ أليس في إمكانه أن يتظاهر بأنه مشلول؟

– إننا واثقون بأنه مشلول. وطبيبه السيد"ويليام ديجدال" شخص فوق أيّ شبهة،. لقد أكّد لنا بأن أطرافه أصيبت بالضمور. حتى إذا أقسم السيد"أسبورن" بأنه رأى" فينابل"، نقول له: لقد أخطأت. وإذا كنت أعتبر ذلك خسارة، هذا لأن" فينابل" كان كفيلاً بمنحنا المزيد من التفاصيل.

– نعم، وهو ما فكرت فيه أنا أيضًا. أردف" ليجين" فجأة:

– معلومات موجزة. الآن يبدو أنه توجد منظمة متخصصة في القضاء على الأفراد الذين يسببون ضيقًا لغيرهم وهذه العصابة لا تستخدم مجرمين محترفين.... لأن أسباب الوفيات تبدو دائمًا طبيعية..... لكنها لصالح شخص ما.... حقا إنها فطنة ودهاء، ومن قام بتدبير هذه التفاصيل يتمتع بعقل جبّار. ونحن لا نعرف سوى بعض الأسماء. الله يعلم كم عدد الذين اختفوا.... وما هو حجم هذه المنظمة.... ولقد قلت منذ قليل إن هذه الـ"تيرزا" تفخر بما لها من هذه السلطة على الناس. فهي كفيلة بالقيام بذلك دون أن تدان ولو أقرّت علنًا أمام السماء وأمام لجنة تحكيم إنها قامت بذلك لتخليص الناس من عذاب وآلام هذا العالم،بما لها من سلطان وإرادة، القانون لا يدينها. إذ إنها لم تقترب من الضحايا ولم ترسل لأحد قطعة حلوى مسمومة عن طريق البريد. وسلاحها الوحيد هو تبادل الخواطر والوجدانيات.حتمًا سوف يسخرون منا. قلت في حمية:

–أمامنا فرصة للحصول على المزيد من المعلومات. لقد أعددنا خطة، إحدى صديقاتي وأنا. سوف نجد في ذلك غباءً....

– سأحكم بعد الاستماع إليها.

– هل سلّمت بأنه توجد منظمة تحصل على نتائج عن طريق وسائل لا يقبلها العقل السليم؟ أمامنا قرار واحد: لنذهب إليه ونشاهد بأنفسنا.كان "ليجين" في هذه الأثناء ينظر إليّ بانتباه. وقال:

– .... لقد تدبرنا كلّ أمر. عرضت عليه الخطة المتفق عليها مع" جينجر".

استمع إليّ جيداً وهو يقطب حاجبيه ويضغط على شفته السفلى ثم أردف:

– إني متفهم الأمر جيداً. إنكما تهدفان إلى انتهاز الفرص لكني لست

أدري إذا كنتما وضعتما في الاعتبار ما سوف يلحق بكما من مخاطر، وأنكما ستتعاملان مع أناس يتعاملون بلا حياء. سيكون الموقف خطيراً بالنسبة لك وبالتأكيد لصديقتك كذلك.

– أعلم ذلك. ولقد ناقشنا هذه النقطة مائة مرة. وما عرضته صديقتي عليّ لا يعجبني بتاتًا، لكنها مصرّة على التنفيذ وتقسم بأنها لن تتراجع. أردف "ليجين" فجأة:

– هل هي ذات شعر أحمر... لقد أخبرتني بذلك أليس كذلك؟ أجبت مندهشاً:

– نعم.

– لا فائدة من محاولة مناقشتها إذن. إني أعلم شيئًا عن ذلك.

الفصل السادس عشر

لم أشعر بأي إحساس بالعصبية عند زيارتي الثانية لـ"برادلي". تُرى هل أُعجبت بذلك؟ بالعكس. وهكذا كانت "جينجر" أوصتني: "حاول أن تعيش في شخصية الدور الذي تقوم به". وكنت أسعى جاهداً لتنفيذ وصيتها. وكان استقبال "برادلي" لي حسنًا، إذ إنه كان مبتسمًا ومدّ لي يده البدينة وقال:

– لقد سعدت لرؤياك، هل فكرت جيداً في مشكلتك الصغيرة؟ سبق وقلت لك "لا تتعجل" خذ وقتك.

– وهو بالضبط مالم أتمكن من تنفيذه.... لأنها أصبحت ضرورة.... الموقف جاد وقهري. في هذه الأثناء كان "برادلي" يراقبني، مسجلاً عصبيتي الواضحة ونظراتي الشاردة وحركتي غير المستقرة عند وضع قبعتي.

– والآن، ليتنا نحدد ما نستطيع القيام به. إنك ترغب في المراهنة على مبلغ صغير أليس كذلك؟ وليس أفضل للمرء من القيام بتدريب رياضي.... للتخلص من همومه. تركت له فرصة تقديم بضاعته. بعد أن بدأ قال لي:

– أراك عصبيًّا بعض الشيء وحذِرًا.وأنا أحب ذلك. ألا تدلي بأمر لا تستطيع والدتك سماعه؟ ربما أنك تخشى من وجود مكبر صوت أو جهاز مراقبة في مكتبي. أقسم بشرفي أن لا وجود لكل هذه الأشياء عندي. ولن يتم تسجيل حديثك بأي شكل. وإذا كنت غير مصّدق لكلماتي، فلك الحريّة في اختيار مكانٍ آخر، ليكن أحد المطاعم أو محطة قطار. أبديت له ثقتي به.وواصل كلامه:

–لا أنت ولا أنا لنا منفعة من مثل هذا الموقف الحساس، والآن إذا كان هناك شيء ما يزعجك أو يثير قلقك فوافني به، ستجدني لطيفًا وسوف تشعر بالحاجة إلى مصارحتي به . وبما لي مع خبرة طويلة، سأعطيك النصيحة اللازمة؛ لأن حمل الهموم يخفُّ عندما نتقاسمه.. ألست مع هذا الرأي؟ وكنت فعلاً من رأيه وبذلك سردت له قصتي في شيء من التردد. وكان السيد"برادلي" شخصًا في غاية المرونة. كان يعاونني في اختيار الكلمات المناسبة وتبسيط العبارات الصعبة. دفعتني موهبته على جذب ثقة محدّثه إلى مصارحته بحبي الأول لـ"دورين" وزواجي منها السرّي فما كان منه أن حكّ رأسه وأطلق زفيراً وهو يقول:

–موقف شائع. الشاب متشبع بالمثاليّة والفتاة رائعة. وهأنت زوج لمدى الحياة... وماذا تم بعد ذلك؟ إزاء ذلك، تجنّبت التفاصيل، إنما كنت أبدي كيف أن الشباب المتهور في الحب يجني ثمرة تصرفه. وجعلته يتوقع أننا انفصلنا إثر مشاجرة حادّة. لا يهم إذا اعتقد"برادلي" أن زوجتي هربت مع

رجل آخر.. قلت:

–كانت جذّابة حقًّا. لم أتخيل أبدًا أنها.... في النهاية تتصرف هكذا.

–ما الذي عملته لك بالضبط؟

– ماالذي عملته؟ لقد عادت.

– ماذا تتوقع عن مصيرها؟

–أنا .... شيء لا يصدق.... أنا لا أتوقع شيئًا غاية ما في الأمر أيقنت أنها ماتت. حكّ "برادلي" رأسه.

–إنها فكرة تتفق مع رغبتك. ولماذا الموت؟

–لأنه حتى يومنا هذا ليس هناك دليل على أنها حيّة.

–في الواقع، أنت الذي كنت ترغب في أن تنساها تمامًا.

–نعم، وكنت لا أريد أن أتزوج مرة أخرى.

–والآن عدلت عن رأيك؟

–إيه....

ألحّ "بردالي":

– هيا أفصح لـ"بابا" "برادلي" بكل شيء. اعترفت له بأني فكرت في العدول عن رأيي مؤخرًا. لكنني في إصرار رفضت منحه أي تفصيل عن الفتاة المختارة. كف عن الإلحاح.

–ليس ما هو أكثر واقعية من ذلك: لقد غفلت عن تجربة الشباب غير الموفقة ووجدت أخيرًا شريكتك النموذجية القادرة على أن تشاركك ميولك الأدبية وتقدر طريقة حياتك. كان يعرف "هرميا". لابد أن يكون "برادلي" قد عرف– في أثناء تحرياته عني– أنه ليس لي سوى صديقة واحدة مقربة إلي.

قال:

– أليس الطلاق هو الحل البسيط؟

–لا جدال في ذلك. من جانبها– أي زوجتي– لم تتقبل قط ذكر هذه الكلمة.

–آه آه، وما هي نياتها نحوك؟ إذا كنت أسمح لنفسي أن أوجه لك هذا السؤال.

–هي.... إنها ترغب في العودة إلى الحياة المشتركة. وهي تظهر غباوة متناهية....فهي تعلم أن شخصاً ما.... و....

–ياله من موقف رديء .... يبدو أنه ليست له حلول كافية.... هذا إلا إذا.... لكنها مازالت صغيرة.... قلت في مرارة:

–ستعيش طويلاً. أمامها العمر.

–آه، من يدري يا عزيزي. لقد أخبرتني أنها تعيش في الخارج.

–على ما يبدو، لكني لست أدري أين.

–ربما في الشرق. وكثيراً ما يحدث أن يصاب المرء بأحد الميكروبات في هذه المناطق.... ويظل هذا الميكروب كامناً وفجأة عند العودة إلى البلد، ومع تغيير المناخ، يأتي بمفعوله. ولقد عرفت أكثر من حالة من هذا النوع.... ومن الممكن أن يحدث مثل ذلك في الوضع الذي يشغلنا. وإذا كان ذلك يطمئنك، فأنا على استعداد للمراهنة على هذا الأمر بمبلغ بسيط. أومأت برأسي علامة الرفض. ثم أردفت:

–إنها ستعيش مائة عام.

–يبدو أن موقفك أكثر ثقة من موقفي، لكني مستعد للمخاطرة. ألف وخمسمائة مقابل واحد. إن السيدة سوف تموت قبل عيد الميلاد المجيد. ما رأيك؟

-مبكرًا عن ذلك. لم أعد قادرًا على الانتظار. كنت بذلك أتظاهر بأني مشوش.... حتى كاد يصدق بأنّ علاقتي بـ"هرميا" قد وصلت إلى درجة لا تساعدني على الانتظار دقيقة.... وأن زوجتي كانت قد هدّدت بإثارة فضيحة بأن أمامي منافس بالنسبة إلى"هرميا"؟ لا يهم.قال:

-هذا الموقف يعمل على تطوير المبلغ. لنقل ألف وثماني مائة مقابل واحد. إن زوجتك سترحل بعد شهر. لي إحساس مسبق بذلك. حدثت نفسي قائلاً: "لقد جاءت فرصة المساومة" ليست لدي مثل هذه المبالغ". قلت له ذلك. غير أن"برادلي" كان ملمًّا بكل أسراري، وكان يعلم أن"هرميا" معها من المال أوفره، وقال لي- في رقة متناهية- إني بعد الزواج لن أندم على هذا الرهان. من جانب آخر، ما بدا مني من تسرع وضعه في موقف حسّاس ولم يقبل التراجع.قمت حينئذ بالتوقيع على عقد مكتوب بأسلوب غير مفهوم بالقدر الكافي عند الأغلبية. سألته:

-هل هذا العقد يربطني من الناحية القانونية؟ أجاب"برادلي:

-لا أعتقد؛ لأن الرهان هو رهان وإن لم يُعمل بالوعد .... على أي حال، إننا لا نحب الغشاشين. لكني مقتنع بأن الفكرة ليست مناسبة لك ياعزيزي. والآن ليتنا نتكلم عن التفاصيل. هل السيدة"إستر بروك" موجودة في"لندن"؟أين بالضبط؟

-أمن الضروري أن تعرف ذلك؟

-حتمًا. يجب تدبير موعد لقاء مع الآنسة"جري".... هل تتذكرها؟ نعم كنت أتذكرها....

-.... سيدة مذهلة، موهوبة جدًّا. وهي تريد شيئًا ما ملكًا لزوجتك سواء كان قفازًا....أو منديلاً....

–لماذا؟

– لا تسألني، لأنني ليست لي أدنى فكرة، "جري" تحتفظ بأسرارها.

– ماذا يحدث؟ ماذا ستعمل؟

صدقني.. إني أجهل ذلك. لست أعرف شيئًا ولا أريد أن أعرف. توقف لحظة، ثم بنبرة أبوية استطرد:

– .... هذا ما أوصيك بعمله: قم بزيارة زوجتك ودعها تصدق أنك تهدف إلى مصالحتها. قل لها إنك مضطر إلى السفر للخارج لعدة أسابيع ولكن عند عودتك........اعمل على أخذ شيءٍ ما من ملابس زوجتك، ثم توجه إلى "ميش ديبنج" .... يخيّل إليّ أنك أخبرتني بأن لك أقارب في هذه الأنحاء؟

– ابنة عمّ.

– هذا ما يبسِّط العملية، لاشك في أنها سوف تستضيفك يومًا أو يومين.

– ما هو المتبع عامة؟ النزول في أوبرج القرية؟

– يبدو لي هكذا، أو التوجه إلى "بورنماوث" .... لا أدري بالضبط.... ثم تطلب من ابنة عمك أن تشترك في أحد عروض" الحصان الشاحب" ولن يُدهش أحد لذلك. الكل يعتبر الأعمال الأرواحية جنونًا والكل يهتم بها. هذا كل ما عليك تنفيذه، أترى كم أنه بالأمر السهل؟

– و.... وبعد؟ حكّ رأسه مبتسمًا.

– لاأعرف أكثر من ذلك. الآنسة "جري" مسؤولة عن الباقي. وبعد ذلك أوصيك بالقيام برحلة صغيرة. الـ"ريفييرا" الإيطالية ممتعة جدًّا في هذه الفترة من السنة. كنت معتزما البقاء في "إنجلترا" وأخبرته بذلك.

– حسنًا حسنًا لكن ليس في "لندن" .

– لماذا؟

فما كان من "برادلي" أن ألقى إلي نظرة عتاب.

–إننا نضمن لزبائننا.... الأمن التام، على شرط أن يطيعوا أوامرنا.

– و"بورنماوث" هل تفيد بشيء؟

– نعم، إنه موقع مناسب. انزل في الفندق، وقم بتكوين بعض العلاقات واعمل على الظهور مع أولئك الأشخاص. ومن الممكن أيضًا الذهاب إلى "توركي" إذا مللت البقاء في "بورنماوث". وكان يتحدث ببشاشة ولطف موظف وكالة سياحية ومرة أخرى كان عليّ أن أصافح اليد البدينة.

الفصل السابع عشر

سألتني "رودا":

–أتريد حقا حضور إحدى جلسات "تيرزا"؟

– لم لا؟

–ظننتك لا تهتم بمثل هذه الأمور.

–يدفعني فضولي إلى مشاهدة العرض الذي ستقدمه تلك السيدات الثلاث. كنت حينئذٍ أشعر بعدم الارتياح إذ كنت شاعرًا بنظرة "هيج ديسبارد" الفاحصة. كان هذا الشخص فطنًا، قضى حياته في المغامرات– ولي كل الثقة في ذلك– بأنه يشعر بأن الفضول ليس هو الدافع الوحيد الذي أتى بي إلى هذا المكان. قررت "رودا":

–سأرافقك. زمجر زوجها:

–لن تستفيدي شيئًا.

– أنت تعلم أني لا أثق في بموضوع الأرواح، إنما هو مجرد تسلية.

– ليس ما هو شاذ أو عجيب في هذا النوع من العروض. وهو ذو تأثير سيئ في الحاضرين الذين أتوا بدافع الفضول فقط.

– إذن أقنع "مارك" بالعدول عن الذهاب إلى هناك.

– أنا لست مسؤولاً عنه. لكنه ألقى إليَّ نظرة خاطفة تحمل الكثير من المعاني. ولي كل الثقة بأنه موقن بأني مدفوع بغرض جاد. أما عن "رودا" فقد تراجعت إذْ خاب ظنها. قالت:

– سنقابل "تيرزا" في القرية فيما بعد. ثم اتجهت فوراً نحو الهدف.

– سننتظرك هذا المساء يا سيد "إستر بروك". أتعشم ألاّ يخيب ظنك. "سيبيل" وسيط رائع، لكننا لا نعلم أبداً.... إننا نرحب بالمشاهد دائمًا، لكن الشخص الساخر أو المازح أو التافه، مثل ذلك قد يلحق بنا الضرر. أتريد أن تأتي ونتناول معًا وجبة خفيفةً؟ من عادتنا ألاّ نأكل كثيراً قبل الجلسة. في الساعة السابعة؟ حسنًا سنكون في انتظارك. ثم حكّت رأسها وابتسمت ثم ابتعدت بخطى واسعة.. تتبعتها وهي تختفي، غارقًا في أفكاري إلى درجة أني لم أسمع ما تقوله لي "رودا".

–إنك حقا شخص عجيبُ، ماذا يحدث؟

–لاشيء، لماذا؟

–لاشك في أنك عاشق. هذا هو الدافع الذي يصيب الرجال بالغباء. لكنك فعلاً على حق، أراني مبتهجة. إنها رائعة وجذابة.

– من هي؟

– "هرميا" بالتأكيد. أتتوقع أني لم ألاحظ شيئًا؟ إنها فعلاً مناسبة.... جميلة.... ذكية.... ثم حولت لي "رودا" ظهرها لكي تتحدث مع الجزار. انتهزت هذه الفرصة لكي أخبرها بأني ذاهب إلى مقر الأسقفية ثم أضفت

لكي أعفيها من تعليقها:

- ليس لإعلان الزواج.

❖❖❖❖❖

شعرت بالارتياح، كأني في بيتي. كان الباب مفتوحًا على مصراعيه. وباجتيازه، أحسست بأني تخلصت من عبء ثقيل. ظهرت لي السيدة"كالتروب" في نهاية الدهليز، حاملة بيدها دلوًا من البلاستيك. قالت:

- صباح الخير. إنه أنت! لقد شككت في ذلك. ثم مدّت لي الدّلو الذي لم أعرف ماذا أعمل به ثم أردفت السيدة"دان" كمن نفد صبرها لمّا رأت جهلي للأمر:

--. . . . أمام الباب على درجة السلم.أطعت، ثم تبعتها إلى الحجرة التي كانت قد استقبلتني فيها في المرة السابقة. حينئذ أضافت مضيفتي قطعة خشب إلى نار المدفأة الذي كاد ينطفئ وأشارت إليّ بالجلوس، وسألتني:

-أخبرني، ماذا فعلت؟

سردت لها كلّ شيْء. قالت مفكرة:

-هل أنه لهذه الليلة؟

-نعم.

فكرت عاجزة عن فهم ما أقصده، لذلك صحت:

-أنا لا أحب ذلك. آه يا إلهي.. إني أنفر من ذلك.

-ما الذي لا يعجبك؟

-إني قلق بشأنها. إنك لا تعرفين إلى أي حد هي.... هي شجاعة. وإذا بطريقة أو بأخرى- عملوا على إلحاق أي ضرر بها... علّقت السيدة"دان" في

هدوء:

–أنا لا أرى كيف يستطيعون إلحاق أي ضرر بها.

– لقد قاموا بذلك مع غيرها.... مع كثيرين آخرين. ولقد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة.... لكنها مازالت معرضة للخطر.

– لابد من أن يقوم أحد ما بذلك، وألاّ يجرح أحد كرامتك. و"جينجر" نموذجيّة للدور المختار لها؛ وهي كفيلة بالسيطرة على أعصابها، كما أنها ذكيّة ولن تدعك تسقط.

– ليس هذا ما يقلقني.

– كفّ عن القلق؛ لأن حالتك هذه لا تفيدها. إذا ماتت إثر هذه التجربة، فعلى الأقل ستكون وفاتها لسبب مفيد.

–إنك فظّة!

–لابد أن أكون هكذا. يجب دائمًا مواجهة ما هو أسوأ؛ لأنّ في مثل هذا التصرف تهدئة للأعصاب.

–هل لديك تليفون هنا؟

–بالتأكيد.

– وبعد.... في نهاية الجلسة هذا المساء، أريد أن ألتقي بـ"جينجر" وأن أتصل بها هاتفيا يوميا. هل أستطيع الاتصال بها من هنا؟

–طبعًا، كثيرون يترددون على "رودا".

–سأمكث عندها لفترة قليلة، ثم ربما أتوجه إلى "بورنماوث" ولا أنوي العودة إلى "لندن".

–لا فائدة من التفكير في الغد. فلنفكر في هذه الليلة.

– هذه الليلة.... نهضت وطلبت منها دهشًا:

– صلي لأجلي.... صلي لأجلنا.

– من البديهي من أجل هذا الموضوع.



وكان استقبالي في "الحصان الشاحب" بطريقة اتفاقية، والتي فتحت لي الباب كانت "تيرزا جري" ، في فستان من الصوف الأسود بسيطٌ جداً. قالت لي:

–آه لقد حضرت، في إمكاننا تناول العشاء.... وكان ذلك بطريقة عادية وعجيبة.... المائدة معدّة في نهاية الصالة. "بيللا" في رداء أسود قدمت لنا وجبة من أبسط الأنواع، أما "سيبيل" فكانت ترتدي فستانا مخططا بأسلاك ذهبية. وكانت لا تضع حول عنقها قلائدها العديدة، إنما اكتفت بوضع سوارين ثقيلين. تناولت قدراً صغيراً جدا من الطعام، ولم تفرط أيضاً في الاسترسال في الكلام، متظاهرة بالتقشف والتخلي عن مباهج ومغريات هذا العالم في محاولة للتأثير في من هم حولها. لكن "تيرزا جري" هي التي بادلتنا الحديث، وعملت على موافاتنا بالأخبار والعادات المحليّة: العانس الإنجليزية كنموذج. حدثت نفسي قائلاً: "لقد جننت، ما الذي يخشى منه هنا؟ إلى أين قادنا خيالنا؟ "جينجر" بشعرها المصبوغ واسمها المستعار في خطر من إحدى تلك السيدات الثلاث؟ شيء فظيع" . وفي نهاية العشاء اعتذرت "تيرزا" :

–لا وجود للقهوة، هل المنبّهات ممنوعة هذا المساء يا "سيبيل" ؟أجابت هذه الأخيرة:

– نعم.. ينبغي أن أستعد. وبدأت "تيرزا" في رفع المائدة أما أنا فقد توجهت إلى اللافتة القديمة ووقفت أمامها و "تيرزا" تتبعني. قالت لي:

– مع هذا الضوء، ستتعذر عليك الرؤية. ،كان رأيها صائبًا. الإضاءة الخافتة الموجودة في المكان كانت لا تسمح برؤية منظر الحصان جيداً.

– ما اسم هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر.... "جينجر".... التي حضرت معك.... أخبرتني أنها تستطيع العمل على نظافته. لاشك في أنها غفلت عن ذلك. كم كانت دهشتي عندما سمعت كلامًا عن "تيرزا". واصلت "تيرزا":

–.... ليس طلاء. إنه غلاف. يعتبر جزءاً من الديكور.... وله من العمر أكثر من ثلاثمائة عام مختفيًا عن الأنظار. وأخذت "بيللا" تنادينا من الظلام الذي كانت فيه ثم أعلنت "تيرزا":

–لقد حان الوقت للانتقال إلى الأمور الجادّة. تبعتها حتى مخزن الغلال، وهو في النهار عبارة عن مكتبة ممتعة، ويتغير مظهرها عندما يقبل المساء، وتضيئه أنوار خافتة. ووسط الحجرة كانت هناك أريكة مغطاة بقماش أحمر مطرّز بعلاماتٍ سحرية (أي متعلقة بأعمال السحر). وفي آخر القاعة مدفأة بجوار خزان كبير من النحاس. على الجانب المقابل– تقريبًا بجوار الحائط– مقعد ثقيل ذو مساند. أشارت إليه "تيرزا" وقالت لي:

– اجلس هنا. أطعت.. قد تغيرت طرق "تيرزا" دون أن يكون في استطاعتي إيضاح كيف وفي أي شيْء. لقد تخلت عن شخصيتها اليوميّة المعتادة، كاشفة عن شخصيتها الحقيقية.... أشبه بالجرّاح لحظة إجراء العملية الجراحية. ولقد ازداد عندي هذا الاحساس قوة عندما ارتدت بلوزة طويلة وكأنها منسوجة من خيوط معدنية، وفي يديها قفاز من الفيليه "دانتيل" أشبه بشباك الملاعب. قالت:

– الاحتياطات واجبة. ثم غيَّرت من لهجتها وقالت بنبرة شديدة تتسم

بالعظمة:

– ألفت أنظار سيادتكم إلى أن السيد "إستر بروك" ... للضرورة– يناشدكم بالبقاء في أماكنكم، ولا ينبغي الانتقال إلى مكان آخر بأي حجّة. الأمر ليس من ألعاب الأطفال. الآن سأدخل في صراع مع قوات خطيرة لأجل المجهول.... هل أحضرتم ما طُلب منكم....؟ في الحال– ودون أن أتفوه بكلمة– أخرجت من جيبي قفازًا من الجلد البنّي وناولته إياها. أخذته ووضعته تحت مصباح ذي عنق أشبه بعنق البجعة وأضاءته. أمسكت بعد ذلك بالقفاز للحظات تحت الأشعة المضيئة التي منحته لونًا باهتًا. ثم أطفأت المصباح وحكّت رأسها وبدت راضية. ثم وضعته أعلى قطعة أثاث قد يكون جهاز راديو. وبصوت مرتفع نسبيا قالت:

–"بيللا"، "سيبيل". إننا مستعدون. أول من وصلت كانت "سيبيل" وكانت قد ارتدت– على فستانها– معطفًا أسود خلعته بحركة مسرحّية وتقدمت. قالت:

– أتعشم أن تسير الأمور على أحسن وجه، ونحن لا نعلم أبداً. برجاء ألا ترتابوا لأن ذلك يضايق السيد....

واستطردت "تيرزا" بنبرة جافة:

–السيد "إستر بروك" لم يحضر إلى هنا لكي يمرح. ثم تمددت "سيبيل" على الأريكة ومالت عليها "تيرزا" لكي تصلح ملابسها. سألتها:

–هل أنتِ مستقرة هكذا؟

– نعم، شكرًا ياعزيزتي. أطفأت "تيرزا" بعض المصابيح ثم قاربت "بارافان" (حاجز خشبي) لكي تجعل "سيبيل" في منطقة مظلمة. قالت لي:

–الضوء ضار عند الاتصال.

–.... إننا مستعدون حاليًا يا "بيللا". خرجت هذه الأخيرة من المكان

المظلم. اقتربت السيدتان مني. وأمسكت" تيريزا" بمعصمي الأيسر وبيدها اليسرى أمسكت بمعصم"بيللا" الأيمن. كانت راحة يد "تيرزا" جافة- أما كفُّ"بيللا" فكان باردًا ورخوًا، جعلني أتقزز، إذ شعرت وكأني ممسكة بحيوان برمائي.لاشك في أن"تيرزا" قامت بتشغيل محرك كهربائي؛ لأن مشهدمسيرة "مندلسن" الجنائزية نزل من القبة. حدثت نفسي بأنه"المشهد" وعلى الرغم من روح النقد التي تشاركني في كل مكان، قدَّرت هذا العمل. سكتت الموسيقى ولم يعد يُسمع الآن سوى صوت تنفس الحاضرين:"بيللا" لاهثة و"سيبيل" تتنفس بعمق. وفجأة تكلمت"سيبيل" لكنه ليس صوتها. إنه صوت رجل ذي نبرة غريبة. قال الصوت:

- هأنذا. تركت يديّ و"بيللا" اختفت في الظلام وقالت" تيرزا" :

- مساء الخير. هل أنت"ماكاندال"؟

- أنا "ماكندال" . اقتربت بعد ذلك"تيرزا" من الأريكة وأبعدت الحاجز لكي ينزل الضوء الخافت على"سيبيل" . كانت تبدو غارقة في نوم عميق. ولقد تبدلت ملامحها وبدت أكثر شبابًا وجميلة أيضًا. سألته"تيرزا" :

- هل أنت مستعد يا" ماكاندال" للإجابة عليَّ؟ أجاب الصوت:

- على أتم استعداد.

- هل تتعهد بحماية الجسد الذي تسكنه حاليًا من أي ضرر؟

- أتريد استخدام القوة لتنفيذ خطتي وجعلها للخير؟

- أريد ذلك.

- أتريد استخدام هذا الجسد كوسيلة لنقل الموت؟

- الموت سوف يسبب الموت. تراجعت"تيرزا" خطوة إلى خلف و"بيللا" اقتربت منها وناولتها شيئًا ما أعتقد أنه صليب. وضعته"تيرزا" على صدر"سيبيل" وتناولت من يد"بيللا" قنينة صغيرة" ذات لون أخضر. أخذت منها بضع نقاط وعملت علامة الصليب على جبين الوسيط. قالت لي:

- إنه ماء بركة من الكنيسة الكاثوليكية في"جارسينجتون" . كانت

تكلمني بأسلوب طبيعي. لم يعمل ذلك على القضاء على المتعة، إنما جعل التقنع (وضع أقنعة التنكر) مثيراً أكثر. أخيراً، هزت اللعبة (الدمية) ثلاث مرات ثم وضعتها بين أصابع "سيبيل" . تراجعت ثم أعلنت:

–كل شيء معد. كررت "بيللا" نفس الجملة وخرجت من الغرفة، لكي تعود بعد قليل ممسكة بديك أبيض من رجليه، وكان يقاومها. جلست القرفصاءو– بقطعة من الطباشير– شرعت في رسم علامات حول المدفأة والقزان. ثم وضعت الديك وسط الدائرة فكفّ عن الحركة. وكانت– في أثناء قيامها بالرسم–تدندن بصوت حنجري منخفض، وهي تهتز وتجثو من حين إلى آخر حتى تصل إلى حالة دوار عنيف. لمّا كانت "تيرزا" قد درستني جيداً، أدركت أني متقزز لهذا المشهد؛ لأنها قالت:

–ألا يعجبك ذلك؟ إنه قديم، قديم جداً. إنه سحر للموت متوارث من الأم للابنة. لقد فوجئت لموقف "تيرزا" ،إذ كانت حريصة على عدم إثارة أعصابي أكثر مما لحق بها من جرّاء العرض الذي تقوم به خادمتها المنفرة . يبدو أنها مقتنعة وراضية عن قيامها بدور المعلّقة (تقوم بالتعليق على موقف). بعد ذلك بسطت "بيللا" يديها نحو المدفأة، فتدفق منها لهيب مرتفع، في الحال ألقت فيه شيئاً ما صدرت عنه رائحة منفّرة. اتجهت "تيرزا" نحو ما شبهته بجهاز راديو عندما فتحته كشف عن جهاز كهربائي ذي مظهر معقد ودفعت به بحرص نحو الأريكة. ثم مالت، ووضعت مقابض محدّثة نفسها:(المؤشر شمال– شمال شرق.... درجة.... تقريباً هكذا) وقالت مرة أخرى:

–إننا مستعدون. تناولت بعد ذلك القفاز ووضعته بعناية تحت ضوء بنفسجي خافت. ثم اتجهت نحو الجسد الراقد بلا حركة على الأريكة، وقالت:

– "سيبيل" ، "ديانا" ، "هيلين" لقد تحررت من غلافك الجسدي محميّة بروح "ماكاندال" . في إمكانك الآن الاتحاد مع مالكة هذا القفار. وكسائر البشر إنها لا تتطلع إلاّ إلى الموت. الموت يمنح السلام. الموت، الموت.... وكانت

الكلمات تصدر صداها وهكذا تتكرر الكلمات. والآن ها هي المصابيح متوهجة والماكينة تصدر صوتاً رناناً. كانت تحدث أمور لا أستطيع أن أسخر منها .ها هي "تيرزا" الآن تسيطر على المخلوقة الراقدة على الأريكة. شرعت في استخدامها لبلوغ هدف معيّن. ولقد أدركت مدى فزعِ السيدة "أوليفييه" أمام غباء "سيبيل" الواضح: في إمكان هذه الأخيرة- بناء على رغبتها- تحرير روحها من جسدها، و"تيرزا" تستحوذ عليه.

-نعم، لكن العلبة.. ما الذي أتى بها إلى هنا؟ وفجأة، تركزت كل مخاوفي عليها. ترى لأي سرٍّ جهنمي هي تعمل؟ هل هي تنتج أشعة قادرة على التأثير في مخها؟

-.... المكان الضعيف- "تيرزا" تواصل الكلام- يوجد دائماً مكان ضعيف داخل الأجسام.... القوة تنبع من الضعف.... القوة والسلام، والموت.... نحو الموت.... ببطء طبعاً.... نحو الموت.... المخرج الوحيد. الجسد يطيع المخ....يأمر.... يأمر.... نحو الموت.. الموت ينتصر.... الموت .... الموت بسرعة.... بسرعة كبيرة.. الموت! وكانت ترفع صوتها تدريجيا وانتهت بإطلاق صرخة انضم إليها عواء حيواني صادر عن "بيللا" .... بعد قليل لمع سلاح سكين .... والديك أصدر صوتاً مفزعاً.... وهكذا سال الدم وفي القزان النحاسي. وفي الحال أسرعت "بيللا" حاملة القزان بين يديها وهي تصيح:

-الدم.... الدم.... الدم. سحبت "تيرزا" القفاز من الماكينة وناولته إلى "بيللا" التي غمرته في الدم وأعادته إلى "تيرزا" التي وضعته بدورها مرة أخرى في الماكينة. أخذت "بيللا" بعد ذلك تدور حول المدفأة وهي تصيح بأعلى صوتها بدعاء دامٍ. وأخيراً انهارت وسقطت على الأرض، والنار أُطفئت. في هذه الأثناء كنت في أسوأ حال ويداي متشبثتان بمساند المقعد.... وبعد ذلك فقدت الرؤية.... ثم سمعت صوت مفتاح آلة والماكينة كفت عن الأداء. قالت "تيرزا" في هدوء تام:

–السحر القديم والسحر الجديد. الشك القديم والاكتشافات العلمية الحديثة. سوف ينتصران معًا.

الفصل الثامن عشر

عندما جلسنا لتناول الإفطار، سألتني "رودا" :

– إلى أي شيء كان يشبه هذا العرض ؟ قلت في لامبالاة:

– آه، حيل معتادة، مجرد خدع. شعرت بأن نظرات "ديسبارد" مسلّطة عليّ.

– رسوم على الأرض؟

– أكوام.

– ديك أبيض؟

– بالتأكيد؛ لأنه كان شعاع "بيللا" .

– هل ارتعدتا(بتأثير عاطفي)؟

– نعم.قالت" رودا" وقد بدت عليها خيبة الأمل:

– يبدو أنك وجدت هذا العمل مزعجًا ويسبب الضيق.

–لا فرق بين الأمرين. على أي حال، لقد أرضيت فضولي.

قال"ديسبارد" عندما دخلت"رودا" إلى المطبخ:

– لكن هذه الأحداث هزّتك قليلاً.

– تقصد.... كنت أرغب في جعل الأمور تسير بهدوء، لكن"ديسبارد" ليس الرجل الذي يستسلم. قلت في هدوء:

– فعلاً كان المشهد.... بهيميًّا إلى حد ما.

– نعم؛ لأن الفكر السليم لا يثق بمثل هذه الأمور، ومع ذلك نراها تؤثر في الأذهان. ولقد سبق لي مشاهدة مثل ذلك في "إفريقيا" . هناك للسحرة سلطان كبير على الشعب وينبغي التسليم بأن هناك أمورًا غريبة تتم ويصعب تفسيرها بطريقة جذريَّة.

– الموتى؟ تقصد حالات الوفاة؟

– نعم، الشخص الذي يشعر بأنه موضع تنفيذ يموت. . . .لكن يبدو أن مثل هذه الأمور لا تؤثر في الأوربيين غير أن من يتغذى بهذه المعتقدات منذ أجيال سابقة. . . . لا يستطيع الانفصال عنها.

– وحتى عندنا، لدينا حالات مفزعة. لقد شاهدت في أحد مستشفيات "لندن" فتاة تشكو من آلام مبرحة في ذراعها، دون أن يكون له سبب علمي واضح. قد تكون هيستيريا. وأعلن لها الطبيب أن في وسعه شفاءها وذلك بكيّ الذراع. قبلت الفتاة هذا العرض وأغفلت عينيها وحولت رأسها وأطلقت صرخة ألم شديد عندما وضع الطبيب على ذراعها قضيبًا زجاجيًّا بعدما غمره في الماء البارد ثم قال لها: ستشعرين بتحسن كبير. وأجابته المريضة: لاشك في ذلك. لقد كان الألم فظيعًا. وهكذا بدا ذراعها منتفخا وبه حرق على المكان الذي وضع عليه القضيب الزجاجي. سأله "ديسبارد":

– هل شفيت؟

– نعم، لكن كان لابد من علاج الحرق. الطبيب ذاته ذُهل لهذا الأمر.

– إني أشك في أمر اهتمامك بحضور هذه الجلسة مساء أمس، ترى ماذا كان الدافع لذلك؟ اكتفيت بهزّ كتفيَّ. ثم أردفت:

– كان أمر تلك السيدات يملؤني حيرة، فأردت التحقق بنفسي من الأمر. لم يلح "ديسبارد"، لكنني لا أعتقد أنه وثق بصدق كلامي. وانصرفت إلى مقر الأسقفية. وكان الباب مفتوحًا لكن على مايبدو أن المنزل كان خاليًا من الناس، واتجهت إلى الحجرة التي بها التليفون وطلبت "جينجر". تأخرت إلى أن ردت عليَّ أو على الأقل هكذا بدا لي.

– آلو.

– "جينجر".

– آه. . إنه أنت. ماذا حدث؟

–هل أنت على ما يرام؟

– بديهي. ولم لا؟ حينئذٍ شعرت بالارتياح. قلت:

– لقد.... لقد خشيت من أن تكون الكوابيس قد أزعجتك.

– لا بتاتا. فعلاً كنت متوقعة حدوث مثل هذا الأمر، لكني– غاية ما في الأمر– استيقظت عدة مرات متسائلة إذا ما كنت أشعر بشيء غريب أو خارق. ومع ذلك شعرت بالخزي لأنه لا وجود لشيء.. ضحكت.

– أخبرني ماذا حدث؟

– "سيبيل" تمددت على الأريكة وارتجفت، هذا كل ما في الأمر. أطلقت "جينجر" ضحكة مرحة.

– وماذا كان دور "بيللا"؟

– تصرفها كان حيوانيًّا (بهيميًّا). قامت بذبح ديك أبيض وغمست فيه قفازك.

– يا للفظاعة! وماذا أيضاً؟

– أمور كثيرة لقد قامت "تيرزا" بدور كبير. استدعت روح تدعى "ماكاندال". وبعد ذلك أضواء متعددة الألوان ودعاء.... وحركات كفيلة بإثارة أحاسيس من لا يتأثرون بشيء.

– لكن ليس أنت؟

– لقد كان لـ"بيللا" تأثير سيئ فيَّ. أخذت تلوّح بسكين كبير وبالطريقة التي كانت تتبعها، خشيت من أن تلحق بي ما لحق بالديك. ألحت "جينجر":

– ولم تتأثر بشيء آخر؟

– أنا لا أدع الفرصة لهذه الأمور حتى يكون لها تأثير فيَّ.

– إذن لماذا أبديت ارتياحًا عندما علمت أني على ما يرام؟

–هذا.... لأني....

–مفهوم، لا فائدة من عدم إجابتك عن هذا السؤال (وتظاهرت له بعدم

الاهتمام) ثم سألته هل تأثرت لشيء ما؟

-قد يكون اقتناع "تيرزا" التام. سألته "جينجر" غير مصدِّقة :

-اقتنعت بأن ما سردته لي قادر على أن يقتل أحد الأشخاص؟

-من البديهي أنها وحشية.

-و "بيللا" هل اقتنعت؟

-يبدو لي أنها تُسر لذبح الدجاج الصغير، وأنها تتظاهر بأنها في حالة إثارة ماكرة وكذلك بصرخة صياحها : "الدم الدم".

-كم كنت أود سماع ذلك. وهل أنت الآن في حال أحسن من قبل؟

– ماذا تقصدين؟

– أحسست أنك مضطرب عندما اتصلت بي هاتفيًّا. هل تشعر بتحسن الآن؟ وكانت فعلاً على حق. لكن لا يهمني أي أمر من الأمور مادامت "جينجر" بصحة جيدة. سألت :

-والآن ماذا سنعمل؟ هل سأظل مختفية؟

-نعم، هذا إذا كنت ترغبين في الحصول على مائة جنيه من "برادلي".

-أكيد.. لا ينبغي ترك هذه الفرصة تفلت منا. هل أنت مقيم عند "رودا"؟

-لفترة قصيرة. ثم سأتوجه إلى "بورنماوث". اتصلي بي هاتفيًّا كل يوم.... أو من الأفضل أن أتصل أنا بكِ. والآن أنا في مقر الأسقف.

-يبدو أن الأيام المقبلة ستكون مملّة. لقد أحضرت معي عملاً لإنجازه....و.... كنت أجد الوقت اللازم لقراءتها.

– ألم يقترب منك أي شخص موضع ريب؟

– لا، اللبّان والموظف وكشّاف الغاز وسيدة وجهت لي عدة أسئلة عن مستحضرات التجميل التي أستخدمها وباحثة عن العميان، وطبعًا البوابان. أحدهما قام باستبدال مصباح.

– لا ضرر من كل ذلك.

– ما الذي كنت تتوقعه؟

– لست أدري بالضبط. كنت متوقعًا حدوث ما يدفعني إلى التصرف لكن ضحايا "الحصان الشاحب" كانوا يموتون طوعًا شككت بعض الشيء في موظف الغاز لكن "جينجر" عارضتني بشدة:

–لقد طلبت منه بطاقته. وهو لم يقم إلاّ بقراءة العداد. آه، ثم إني عندي الدكتور "كوريجان" صديقك . كم هو جذّاب.

–لا شك في أنه "ليجين" الذي أرسله لك. أخفضت سماعة التليفون وأنا مطمئن جدًا. لقد أصبحت في حالة ارتياح تام. عندما عدت إلى "رودا" وجدتها في الحديقة، وتقوم بوضع مرهم لأحد كلابها. قالت:

–لقد انصرف من عندي الطبيب البيطري منذ قليل. يبدو أن هذا الكلب مصاب بمرض جلدي مُعْدٍ، وأخشى منه على الصغار والكلاب الأخرى. وهو يتسبب في سقوط الشعر... لكنه ينمو ثانية. قدمت لها معونتي، لكنها رفضت. لقد لاحظت كثيرًا أنه لا يوجد أكثر من ثلاثة اتجاهات للنزهة. في "ميش ديبنج" من الممكن اتخاذ طريق "جارسينجتون" أو "لونج كوتنهام" أو أعلى "شادهانجر لان" والوصول إلى الطريق الرئيسي" لوندر– بورنماوث" وهو يبعد عنها بمسافة كيلومترين. سلكت طريقي ولي هدف محدّد. بما أن "بريروز كورت" يؤدي إلى "شادهانجر لان" لماذا لا أستغل الفرصة وأقوم بزيارة السيد "فينابل"؟ كنت كلّما فكرت في هذه الفكرة. أعجبتني، وليس في تصرفي هذا ما يدعو للشك. كانت" رودا" قد اصطحبتني إليه في أثناء إقامتي الأخيرة. زيارة ثانية تسمح لي بمشاهدة مجموعات "فينابل" سوف تبدو أمرًا طبيعيًا. ولقد كان موقفًا شائقا جدًا بأن هذا الصيدلي "أوليسجن"؟ " أسبورن"؟ إنه أكّد تعرفه عليه وإذا سلّمنا مع "ليجين" أن إعاقة "فينابل" تبعده عن الشبهات.، لكن اللقاء كان يثير الفضول، هل له شبيه في المنطقة؟

–كان هذا الـ "فينابل" شخصًا عجيبًا على قسط كبير من الذكاء ولاشك أيضًا في أنه مرن جدًا حتى إنه قادر على القتل بنفسه.... لقد رأيته وهو

ينفذ جريمة لشخص نائم. إنه عقل نموذجي. كان الصيدلي قد أكد أنه شاهد "فينابل" يسير في أحد شوارع "لندن". ولما كان ذلك مستحيلا أصبح البيان غير مجد بشيء، وأن إقامة "فينابل" في دائرة "الحصان الشاحب" هذا لا يشير إلى شيء. ومع ذلك كانت لي رغبة في لقائه مرة أخرى. استقبلني هذا الأخير بكل ترحاب وتحدث معي مثل صديق قديم.

–لقد سررت لمجيئك يا عزيزي. سمعتهم يقولون إنك في منطقتنا وفكرت في الاتصال بـ"رودا" لكي تصطحبك عندي للغداء أو للعشاء. طلبت منه أن يسامحني على زيارتي المفاجئة هذه؛ لأن بمروري أمام بابه شعرت بإحساس يدفعني إلى الدخول. قلت:

– بالمناسبة أتمنى مشاهدة مجموعات الصور الصغيرة المنغولية مرة أخرى؛ لأني لم أتمكن في المرة السابقة من تفحصها. وفعلاً وجدت متعة في الاستمتاع بمشاهدة ما يقتنيه هذا الرجل من تحف نادرة.

أحضروا لنا الشاي وأصر "فينا بل" على أن أمكث معه. قدموا لنا حلوى لذيذة ذكرتني بما كنا نتناوله في فترة بعد الظهر عند الجدود عندما كنت طفلاً. قلت:

– إن طاهيك ممتاز. ألا تجد صعوبة في الاحتفاظ بخدمك في مثل هذه الضاحية النائية؟ هزّ "فينابل" كتفيه.

– طالما أرغب في خدمة متميزة فيجب أن أدفع، وهأنذا أكافئهم جيداً. كانت شخصية هذا الرجل القوية تنعكس على كلماته.

– من البديهي وهذا يحل العديد من المشاكل.

– هذا متوقف على ما يريده المرء في الحياة. المهم هو أن تكون الرغبة أكيدة فكثيرون يكوّنون ثروة ولا يعرفون كيف يستخدمونها. إني أعتبرهم عبيداً للمال. تجدهم يبكرون للعمل ويعودون في ساعة متأخرة ولا يتمهلون أبداً للاستمتاع بحياتهم. ما الذي يحصلون عليه في النهاية؟ سيارة أفخم أو أثاثاً للمنزل أكثر ثراءً أو زوجة أو سيدة مكلفة أكثر مع مزيد من المتاعب،

والعجيب أن أغلبية الأثرياء يجدون متعة في جمع المال.. لماذا؟ ترى هل تساءلوا عن ذلك يومًا ما؟ وإذا تم ذلك تكون الإجابة أنهم لا يعلمون. سألته:

– وأنت؟ ابتسم:

– أنا.. لقد علمت دائمًا ما أريد: فترات استرخاء مع بعض النزهات من وقت إلى آخر تسمح لي بمشاهدة أشياء جميلة في هذا العالم سواء كانت طبيعيّة أم صناعيّة. ولما تعذّر عليَّ ذلك في السنوات الأخيرة، جلبتها عندي.

– لكن قبل كل ذلك لابد من وجود المال؟

– نعم.. يجب على المرء وضع خططه وإعداد مشروع.... لكن حاليًّا لا داعي لممارسة أيّ هواية أو عمل فني.

– أنا لا أفهمك جيدًا.

– إننا نعيش في عالم متغير، "إستر بروك". وهو وضع قائم من قبل.... لكن حاليًا أصبحت التطورات أسرع من ذي قبل.... ويجب الاستفادة من ذلك.

– للأسف، إنك اليوم تواجه شخصًا يهتم بالماضي.... وليس بالمستقبل. هزّ "فينابل" كتفيه.

– المستقبل؟ ومن الذي يستطيع معرفته مسبقًا؟ إني أتكلم عن الحاضر، عن اللحظة التي نحن فيها. وهذه الأساليب العلمية والتكنولوجية الحديثة جُعلت حتى نستخدمها ونستفيد بها. هب أننا نمتلك آلات تجيب عوضًا عنا.

– العقول الإلكترونية؟

– مثلاً.

– وهل الأجهزة ستحل مكان الناس؟

– الناس نعم، نعم عن طريق الإنسان الذي سيبقى دائمًا المدير والمفكّر، الذي يضع الأسئلة إلى تلك الآلات. قمت بحكّ رأسي مقتنعًا بعض الشيء.

– ما يفوق البشر؟

– ولم لا "إستر بروك" ؟لمَ لا؟ إننا بدأنا في معرفة الإنسان بصفاته الحيوانية. ما يسميه البعض عن جهلٍ غسيل المخ يقدم لنا إمكانيات شائقة. وليس فقط الجسد هو الذي يستجيب للمؤثرات إنما الذهن كذلك.

– مذهب خطير.

– خطير؟

– بالنسبة إلى المريض.

– كل الحياة خطيرة وكثيراً ما نغفل عن ذلك، نحن الذين نشأنا في جزيرة صغيرة من الحضارة، لأن الحياة ليست سوى ذلك، ولقد تمكنت مجموعات صغيرة من الناس هنا وهناك بهدف الحماية المتبادلة وتوصلوا إلى استغلال الطبيعة والسيطرة عليها أحياناً. لقد قهروا الأدغال لكنه نصر وقتي؛ لأنها كفيلة بالتجديد. لقد أصبحت مدن متميزة مجرد تلال تعلوها الأعشاب البريَّة ومن نجوا من البشر من الموت وعاشوا عليها ويقومون بزراعتها. الحياة كلها مخاطر، لا تغفل عن ذلك. في النهاية قد لا تكون القوى الطبيعية الكبرى هي التي سوف تعمل على هدمها إنما نحن الذين سنقوم بذلك بأيدينا، وقد تكون هذه المرحلة قريبة....

– ليس من ينكر كل ذلك. لكن نظريتك عن.... السيطرة على العقل أعجبتني كثيراً وجعلتني أتعلق بها.

– مهلاً!(حينئذ بدا الحرج على "فينابل") لاشك في أني بالغت بعض الشيء. كان "فينابل" يعيش منفردا وهو يتحدث إلى أي شخص حسبما يأتي إلى ذهنه.... فعلاً لقد بالغ بعض الشيء.

– لقد أربكتني بنظريتك عن الإنسان الأسمى (نظرية نيتشه).

– ليس من جديد فيها، وكم من فلاسفة جعلوا منها أساساً يرسون عليه نظرياتهم الخاصة!

– بالتأكيد، لكن يبدو لي أن إنسانك الأسمى يختلف عما للآخرين.... رجل ذو سلطان قوي.... دون أن يكون لأحد علم بذلك. رجل مستقر على

مقعده ويكفيه أن يشد الحبال (كما في مسرح العرائس) .ابتسم.

– أفي إمكانك القيام بهذا الدور؟ إننا في حاجة إلى من يقوم به. ومرّ بيده على الملاءة المبسوطة على ساقيه.

– أنا لا أرغب في تقديم شفقتي؛ لأنها غير كافية. إنما صدقني إذا ما تخيلنا شخصاً كفيلا بتحويل الهزيمة إلى نصر، فقد تكون أنت. ضحك.

– إنك تمدحني وربما أنك تدفع بي إلى الغرور. غير أن السرور بدا عليه. قلت:

– لا. لقد تقابلت في حياتي مع رجال كثيرين وبذلك تجدني قادراً على تمييز الشخص الموهوب. غير أني داخليًّا خشيت من أن أكون قد تجاوزت الحدود في امتداحه. قال ساهماً:

– إني أتساءل عن السبب الذي يدفعك إلى هذا التعليق، هل هو كل ذلك؟ قال هذا وهو يبسط ذراعيه بحركة تحتوي الحجرة بكل ما بها من أثاث.

– إن في ذلك دليلا على ثروتك وذوقك الفني عند الشراء.لكن هناك ما يفوق الممتلكات الأرضية. ولقد أشرت إلى أنها ليست ثمرة عمل متواصل.

– بالضبط إنهم المجانين فقط الذين يرهقون أنفسهم. يكفي التفكير، ثم وضع الخطة مع جميع تفاصيلها، وسر النجاح بسيط، لكن يجب التفكير فيه. هل عندك الفكرة؟ قم بتنفيذها وبعد ذلك ستجد ذاتك. كنت في هذه الأثناء أتفحصه. . . . شيء بسيط. نعم كل شيء، لكن عدا بشأن الضحيّة. يقوم بها السيد "فينابل" وهو مسمر في مقعده المتحرك. ويتم تنفيذه بواسطة. . . . "تيرزا جري"؟ قلت:

– كل ذلك يذكرني بهذه الآنسة العجيبة "تيرزا جري" .

– آه! العزيزة "تيرزا" . حقا كان يتكلم بنبرات وديعة ورقيقة، لكن ألم أشاهد عينيه اللامعتين؟

– . . . . يا لها من سخافات قامت بها، لا بل كلهن يثقن بها. هل حضرت ذلك؟ لاشك في أنهم طلبوا منك ذلك طلبوا منك، حضور إحدى هذه

الجلسات؟ أجبت:

– نعم. لقد حضرت واحدة منها.

– وهل وجدت أن ذلك غباء أم أنك تأثرت به؟ عملت على تجنّب نظراته وتظاهرت بأني لم أشعر بارتياح في أثناء الجلسة. قلت:

– إيه.... من البديهي أني لا أثق بمثل هذه الأمور. إنها فعلاً تبدو حقيقية وصادقة، لكن.... ثم ألقيت نظرة إلى ساعة يدي وقلت في نفسي: "لم أتوقع أن الوقت متأخر إلى هذا الحد. لابد من أن تكون ابنة عمي قد قلقت بشأني".

– لقد عملت على تسلية شخص معوّق في فترة بعد الظهر الكئيبة. تحياتي إلى "رودا" ويجب علينا إعداد وجبة غداء أخرى بسرعة. سأتوجه غداً إلى "لندن". سيكون هناك مزاد لبعض المشغولات القديمة التي من العاج (سن الفيل). آه ليتني أحصل عليها. وهكذا افترقنا بعد هذه الجلسة الوديّة. ترى هل عيناه لمعتا عندما ذكرت له الجلسة عند "تيرزا" أم أنه خيالي الذي يوحي إليّ بذلك؟

الفصل التاسع عشر

وإذ أقبلت فترة الغسق، كنت أرى بصعوبة الممشى المؤدي إلى باب الخروج. التفتُّ لحظة لإلقاء نظرة أخيرة على نوافذ المنزل المضاءة. وبينما أنا أقوم بهذه الحركة اصطدمت بشخص أتى في الاتجاه المضاد لي، وكان رجلاً قصير القامة، بديناً نسبيّاً. تبادلنا عبارات الاعتذار. وكانت نبرات صوته واضحة وعميقة:

– آسف.

– عفواً.. أنا من أخطأ أؤكد لك.... المعذرة. قلت:

– بما أني لا أعرف الطريق جيداً، كان عليّ إحضار مصباح جيب (بطارية).

– اسمح لي. قال الغريب هذا وأخرج من جيبه بطارية وأضاءها وناولني

إيّاها. حينئذ تمكنت من رؤية ملامحه جيداً. كان صاحب وجه مستدير ملائكي وشارب أسود وكان يضع نظارة، والمعطف الواقي من المطر الذي يرتديه من نوع جيد. كان بالإجماع يبدو شخصًا محترما لكن مع ذلك دُهشت؛ لأنه لم يستخدم هو ذاته البطارية. قلت في شيء من الغباء:

– آه. لقد تجاوزت الممشى. فما كان مني إلاّ أن عدت وأعدت المصباح إلى صاحبه. قال:

– لا، لا. احتفظ به حتى تصل السور.

– لكن.... وأنت؟ هل أنت ذاهب إلى المنزل؟

– لا، سأتبع نفس الطريق الذي ستسلكه؛ لأني.... لأني ذاهب إلى موقف الأوتوبيس المتجه إلى "بورنماوث".

– آه. نعم. واصلنا مسيرتنا جنبًا إلى جنب. سألني رفيقي وكان يبدو متضايقًا إذا كنت أنا كذلك سآخذ الأوتوبيس وأجبت بأني أسكن في هذه المنطقة المجاورة، ثم بعد فترة صمت أخرى شعرت بما يعانيه هذا الشخص المجهول من ضيق. سعل ثم سألني:

– هل كنت في زيارة للسيد "فينابل"؟

– نعم، وظننتك متجهًا إلى عنده أنت أيضًا.

– لا،لا....إني أسكن في "بورنماوث".... لقد نقلت أثاثي إلى هناك في منزل صغير. عمن كنت سمعت أنه يسكن "بورنماوث"؟؟ وبينما كنت أحاول أن أتذكر، كان رفيقي– وقد ازداد اضطرابًا– قد استطرد:

– لابد وأنك تجد غرابة في هذا الوضع وأنا معترف بذلك.... أمر عجيب أن تقابل شخصا في حديقة شخص آخر لا علاقة له به على الإطلاق. كثيراً ما تبدو تصرفاتي عجيبة، تحتاج إلى تفسير وإن كنت أؤكد لك أن تصرفاتي عادة عادية وجيدة. أنا لم أسكن "بورنماوث" إلاّ منذ فترة قليلة، لكنه– أي هذا الحي– قد يكون مفتقراً لمن يستطيع التجاوب مع شرفي ووضعي الاجتماعي. أنا صيدلي، وقد عملت على بيع المحل الخاص بي في "لندن"

مؤخراً، لكي آتي إلى هذا المكان الذي كم أعجبني .في ضوء المصباح تمكنت من معرفة من هو هذا الرجل القصير القامة، لكنه كان لايزال يواصل كلامه قائلاً :

– أنا أدعى "أسبورن زاكارياس"، "أسبورن" .. كان عندي محل وتجارة جيدة جداً في "لندن" في "بارتون ستريت" وهو حي جميل يرجع إلى أبي، لكنه تغيّر كثيراً .... آه نعم.... وأطلق زفيرا ثم هزّ رأسه.

– آه... ها هو منزل السيد "فينابل" .... أعتقد أنه أحد أصدقائك؟

– ليس بالضبط،أنا لم أره سوى مرة مع جماعة من الأصدقاء.

– آه، فعلاً فعلاً. حينئذٍ وصلنا إلى مدخل الحديقة وخرجنا منها. توقف السيد "أسبورن" متردداً. أعدت له مصباحه.

– نعم.

– عفوا.... لقد.... وتوقف ثم عاد إلى الكلام بسرعة.

– .... أنا لا أريد أن تفكر في الأمر. نعم، بالمناسبة لقد دخلت إلى ملك غيري. أؤكد لك أنه لمجرد إشباع فضول. قد يبدو لك موقفي شاذا بل وإني مخطئ. لكنني سأوضح لك.... انتظرت، وكان أفضل شيء أقوم به. التزم الصمت لدقيقة على الأقل ثم قال:

– ها يا سيدي....

– "إستر بروك".

– كما سبق وأخبرتك– هذا إن لم تكن متعجلاً– أحب أن أفسر لك سر غرابة تصرفاتي. يوجد مقهى صغير مناسب بالقرب من موقف الأوتوبيس الذي لن يصل قبل عشرين دقيقة. ليتك تسمح لي بأن أقدم لك قدحاً من القهوة. وافقت. وكان السيد "أسبورن" – وقدتنازل بعض الشيء عن وضعه المهيب– أخذ يثرثر في لطف على طول الطريق ممتدحاً مزايا "بورنماوث" من حيث المناخ والسكان وخلافه. وعندما وصلنا إلى المقهى دخلنا وجلس "أسبورن" أمامي وأفصح لي عن كل ما يضمره. حكى لي كل ما كنت

أعلمه مع "كوريجان" بشأن موضوع اغتيال الأب "جورمان" ودوره كشاهد له.

- .... ولقد أعلمني المفتش "ليجين" - وكان آتيًا من "بورنماوث" بعد استلامه خطابي - أن السيد "فينابل" مصاب بالشلل منذ سنوات إثر صدمة مُخيّة. قلت له:

- لابد وأني وقعت في شخص مشابه له تمامًا. وإذا بـ "أسبورن" يتوقف فجأة. من جانبي بدأت في ارتشاف قدح القهوة المقدم لي بحرص، أما هو فقد أضاف ثلاث قطع من السكر إلى قدحه. قلت:

- إذن بذلك انتهى الموضوع. لم يبد "أسبورن" راضيًا بالقدر الكافي لهذا التعليق وقال:

- نعم. ثم مال عليّ وأضاف:

- أتعرف ياسيدي الفاضل أني أتذكر عندما كنت طفلاً أنه كان لوالدي صديق صيدلي هو أيضًا. طلب هذا الأخير للشهادة في قضية "جان بول ماريجو". ربما أنك تتذكره.... هذا الذي كان قد دس السم لزوجته. وكان صديق زوجي قد عرف أنه الشخص الذي وقّع باسم مزيف على قائمة السموم. وإذا اقتنع بالاغتيال تم شنق "ماريجو". كنت وقتئذ في التاسعة من عمري وتأثرت وقتئذٍ كثيرًا لهذا الوضع. ومنذ ذلك اليوم وبداخلي أمل في أن يكون لي دور في إحدى القضايا الشهيرة أي أن أكون الأداة التي توصل أحد الجناة إلى العدالة.. من تلك اللحظة بدأت في التدريب على معرفة الوجوه. وأعترف لك ياسيدي وإن كان ذلك سيبدو لك غريبًا أني انتظرت لعدة سنوات دخول شخص إلى محلي - وكان يعتزم قتل زوجته - للقيام ببعض المشتريات. وأسفاه، لم يتم ذلك، ولست أدري إذا كان هذا الشخص قد قُدِّم للعدالة أم لا وهذا ما يحدث كثيرًا حتى أن المرء يكاد ألا يصدقه. وكانت فرصة التشابه هذه قد تقدمت لي في موضوع اغتيال. ومن طبعي يا سيدي أني رجل عنيد. ومرت الأيام واقتناعي في ازدياد. الرجل الذي شاهدته

هو "فينابل" وليس سواه. آه أعلم يقينا أنها كانت ليلة معتمة، وكنت على مسافة بعيدة لكن رجال الشرطة لا يعترفون بأني موهوب لتذكز ملامح الناس. كم من مرة كررت لنفسي: "اعترفي يا نفسي بأنك أخطأت" ومع ذلك- في إصرار- كنت أشعر بأني لم أخطئ. الشرطة تعلن أنه مستحيل لكن ما هو المستحيل؟

- مع عجز من هذا النوع.... قاطعني بإشارة آمرة قائلا:

- نعم،نعم .... قد لا تصدق ما هو في مقدور الناس أن يعملوا وما يعملونه بالفعل! ولا أصل إلى حد الادعاء بأن الهيكل الطبي يذخر بالسذج. لقد أسرع أحد الأطباء بالإعلان عن مرض مصطنع. لكن هناك وسائل.... الصيدلي مؤهل أكثر من الطبيب.... وعلى سبيل المثال بعض العقاقير وبعض التركيبات قد تبدو مسكنة. الناس كثيراً ما يدعون الإصابة بالحمى أو إذا أصيبوا بارتفاع درجة الحرارة يشخصونه حمى أو يشخصون الالتهابات الجلدية.... وجفاف الحلق أو زياردة مفرطة في الإفرازات الطبيعية.

- لكن من الصعب التظاهر بالإصابة في الأطراف.

- من البديهي. لكن من أخبركم بأن أطراف السيد "فينابل" مصابة فعلاً؟

- طبيبه المعالج.

- نعم، ولقد حاولت الحصول على بعض المعلومات بشأن هذا الموضوع. الطبيب الذي بدأ علاج السيد "فينابل" أحد أطباء "هارلي ستريت". لكن عند وصوله إلى هذه المنطقة تولى علاجه أحد أطباء المنطقة. الطبيب المعالج سافر إلى الخارج. وبديله لم يفحص السيد "فينابل" ولا مرة. لذلك فهو يتردد على "هارلي ستريت" مرة كل شهر للمتابعة.

- أنا لا أرى في ذلك تطويراً للأمر.

- مثال صغير يكفيك. لقد حصل السيد "هـ" على مكافآت خلال أكثر من عام في ثلاثة أماكن مختلفة باسمه الحقيقي، ثم تحت اسم السيدة "س" والسيدة "ت"؛ لأن هاتين السيدتين كانتا قد أعارتاه بطاقتيهما مقابل مبلغ

معيّن.

– لا أرى العلاقة في ذلك....

– ليكن ليكن.... السيد "ف" يتقابل مع إحدى ضحايا الإصابات المخية. وهذا الشخص في حالة مالية سيئة؛ لذا فإنه يقدم له منحة. الرجل يشبهه في كل شيء. المريض الحقيقي باسم السيد "ف" حيث يذهب إلى طبيب متخصص وهذا الأخير يفحصه ويكتشف حالته. السيد "ف" يستقر في الريف والطبيب المحلّي موشك على بلوغ سن المعاش. والمريض يذهب لاستشارته. لقد وصلنا الآن. ها هو السيد "فينابل" يعاني شلل الأطفال وهو ينتقل على مقعد متحرك.... إلخ وهو يتوجه إلى أماكن عديدة.

– لكن الخدم يعلمون عنه كل شيء ولو كان مرضه مصطنعاً لاكتشفوه.

– لو كانت عصابة.... من السهل أن يكون خادمه الخاص من أفرادها....

– لكن لماذا؟

– آه! إنها مسألة أخرى. سوف تضحك عند سماع نظريتي.... في إمكانه أن يكون في أماكن مختلفة في آن واحد دون أن يعرف أحد ذلك. قد يقول قائل: لقد شوهد وهو يسير في "باديجتون"! ويرد آخر ويقول: مستحيل.. إنه معّوق مسكين يعيش في الريف.... وهكذا. ثم توقف "أسبورن" ونظر إلى ساعة يده.

– .... يجب أن أنصرف، الأوتوبيس موشك على الوصول، وكنت أتساءل كيف يمكن إثبات كل ذلك؟ لذلك حضرت للتجسس عليه. عسى أن أجده في حديقته فجأة أو أنه ينتقل في حجرته ظنا منه أن الستائر تخفيه أو أنه يتجول في مكتبته.

– لماذا تصر على أو تتوقع أن "فينابل" هو الشخص الذي يسير في الليل؟

– لأني أعرف أنه هو. ثم نهض بسرعة.

– .... ها هو الأوتوبيس قد وصل. لقد تشرفت بلقائك وهأنا قد تخلصت من الحمل الذي كان يثقل ضميري عندما تمكنت من موافاتك بما

كنت أقوم به في "بريورزكورت" .

– لكنك مع كل ذلك لم تخبرني لِمَ تشك في "فينابل" ؟ بدا الحرج على "أسبورن" .

– قد تسخر مني: الجميع يقولون إنه ثري ولكن ليس من يعلم مصدر ثروته. بالنسبة إليّ إنه أحد أولئك المجرمين الذين تتحدث عنهم الصحف. هل تعرف تلك الفئة التي تقوم بأعمال خارقة، يستخدمون فيها العصابات التي يكونونها. قد يبدو لك قولي سخفًا، لكن.... وصل الأتوبيس و" أسبورن" لحق به جريًا.

الفصل العشرون

في صباح اليوم التالي، طلبت "جينجر" على الهاتف لكي أخبرها بأني وصلت إلى "بورنماوث" في اليوم التالي.

– لقد وجد فندق صغير يدعى "بارك أوسير" ، الله يعلم لماذا دعُي بهذا الاسم. لهذا الفندق بابان سرّيان. في إمكاني الخروج منه دون أن يراني أحد لكي ألتقي بك في أيّ مكان. فجأة أحسست بشيء ينذرني:

– "جينجر" .... صوتك.... لقد تغيّر....

– آه، لا، لا تهتم أنا على ما يرام.

– لكن صوتك..

– أشعر بألم خفيف في الحلق، لا تنزعج.

– "جينجر" .

– لا تقلق يا "مارك" أي إنسان معرض لألم بالحلق، قد أكون مصابة بنوبة برد أو دور إنفلونزا.

– الإنفلونزا. أجيبيني أتشعرين حقا بأنك مصابة بالإنفلونزا؟

– ربما.... آه.... أشعر بآلام في كل أجزاء جسمي.... أنت تعلم أنها....

–ترى هل درجة حرارتك مرتفعة؟

– لا شك.. قليلاً. أثلجت فجأة فاضطررت للجلوس فزعًا. كذلك "جينجر" كانت خائفة وإن كانت ترفض الاعتراف بذلك.. أعلم ذلك جيداً. قالت:

– "مارك".... لا تقلق، الأمر ليس بهذه الخطورة....

– ربما، لكن يجب اتخاذ الاحتياطات اللازمة. استدعي طبيبك فوراً واطلبي منه أن يأتيك فوراً....

– مفهوم.... لكن الطبيب سوف يعتبرني امرأة رخوة، عديمة الاحتمال....

– لا يهم، هيا نفّذي ما قلته لكِ، وعندما يصل اتصلي بي هاتفيا. وضعت سماعة التليفون وجلست أراقب الخط التليفوني(دون أن أراه طبعاً). كان ينبغي ألا أستسلم للخوف بلا داع.... الإنفلونزا تنتشر عادة في هذه الفترة من السنة.... والطبيب سوف يطمئنها.... ومن يدري ربما تكون نوبة برد بسيطة. كان منظر "سيبيل" في فستانها المخطط يتراءى لي وصوت "تيرزا" مازال يرن في أذنيّ.... و"بيللا" وهي تنشد أغاني الموت. غباء.... لم تكن هذه الأمور سوى خِدع. لكن العلبة.. هل كانت شيئًا علميا ذا قدرة خارقة؟.... مستحيل. وإذا بالسيدة "دان" تجدني في نفس المكان جالسًا أترقب التليفون باهتمام. سألتني:

– ما الأمر؟

– "جينجر".... "جينجر" ليست على ما يرام. لقد سمعتها وهأنا الآن في انتظار أن تطمئني .

– شيء رديء.... نعم إنه شر.

– مستحيل. لم يتمكنوا من تنفيذ ما يقولون.

– حقا؟

– إنك لا تصدقين ولا تستطعين تصديقه....

– اسمع يا"مارك" يا عزيزي، لقد قبلتما كلاكما أنت و"جينجر" مثل هذه الاحتمالات التي بدونها لم يكن في وسعكما الحصول على الخبرة. إن مرض "جينجر" يمنحك الإثبات حاليا. في الحال شعرت بأني أمقتها لذلك صحت:

– لماذا أراكِ متشائمة إلى هذا الحد؟ ولمَ لا تتوقعين نوبة برد أو زكام إنما ترين ما هو أسوأ؟

– لأنه لو كانت الإنفلونزا فعلاً يجب مقاومتها وعدم التمهل حتى لا تقع فيما هو أسوأ.

– أتعتقدين أن كل هذه الخزعبلات هي التي أدت إلى مالحق بـ"جينجر"؟

– شيء ما حدث، والآن علينا مواجهته، بحسب رأيي، إني أرى في الأمر نسبة كبيرة من الدجل يعمل على خلق جو من التوتر، لكن خلف كل ذلك يوجد الشيء الذي يهم.

– ماذا؟ ماذا؟ هذه العلبة الملعونة يجب فحصها عن طريق الشرطة.

– للقيام بذلك لا بد من أن تكون لدينا أدلة خلاف ما بأيدينا الآن.

– وإذا عملت على تدميرها؟

– على حسب كلامك، ما بها من شر سوف يعمل على إلحاق الضرر بك. أمسكت رأسي بيدي وبدأت أئن متألمًا.

– لماذا يا إلهي تركتني أخوض مثل هذا المجال؟! أفحمته السيدة "دان":

– لأنه كان أمامك أسباب جيدة للقيام بهذه المهمة يا"مارك" و ما تم قد تم، وستعرف المزيد من التفاصيل عندما تتصل بنا"جينجر". أعتقد أنها سوف تتصل عند"رودا". حينئذٍ أدركت قولها. قلت:

– سأعود. حدث أن "جينجر" اتصلت بي بعد ذلك بساعتين. قالت لي:

– لقد حضر الطبيب بعد قليل وبدا عليه الضيق– هكذا تراءى لي– يبدو أنها الإنفلونزا، وأصبح لزامًا عليَّ تناول بعض الأدوية وملازمة الفراش لكن أعتقد أنه وضع طبيعي في حالة الإصابة بالإنفلونزا، أليس كذلك؟ أجبتها

وقد استبدّ بي الحزن:

– سوف تتحسَّن الأمور. هل أنت مستمعة لي؟ هل تشعرين بألم؟

– نعم، ألم في كل أجزاء جسمي مع ارتفاع في درجة الحرارة ولا أحتمل أي لمسة.... و.... كم إني.... متألمة من السخونة.

– إنها الحمى يا عزيزتي. انتظري سأحضر فوراً لأنك لكي أراكِ. لا تعترضي. سأنصرف فوراً. لا، لا، لا تعترضي.

– حسنا يا" مارك". يجب أن أعترف بأني سعيدة عندما عزمت على الحضور عندي.... فعلاً أعتبر نفسي أكثر شجاعة مما كنت أتوقع.



واتصلت هاتفيا بـ"ليجين": قلت:

– الآنسة"كوريجان" مريضة.

– ماذا؟

– إنك تسمعني جيداً. إنها مريضة، وطبيبها يرى أنها قد تكون مصابة بالإنفلونزا لكن ليس متأكداً من ذلك لست أدري ما تستطيع أنت القيام به. عن نفسي ليست لديَّ سوى فكرة استشارة طبيب متخصص.

– متخصص في أي شيء؟

– طبيب نفساني.... أو أحد المتخصصين النفسانيين في مقاومة الخوف والوسوسة. هذا ما هي في حاجة إليه، وفي النهاية أن يكون على دراية بعمليات التنويم والسيطرة على الأفكار أو غسيل المخ(كما يقولون).. هل هناك ما هو من هذا النوع؟

– من البديهي. إنك على حق. ربما نكون قد وجدنا ما نحن في حاجة إلى معرفته بشأن التأثير النفسي. ثم وضعت السماعة في جفاء. شيء ما يهمني: "جينجر" في غاية الشجاعة وفي نفس الوقت في أقصى حالات الفزع. لقد خضت مجالاً دون أن تكون لي فيه ثقة كافية، واكتشفنا أنه أمر جاد. لقد أثبت "الحصان الشاحب" قدرته ..آه يا إلهي!

الفصل الحادي والعشرون

لن أنسى الأيام التي تلت ذلك. تم نقل "جينجر" إلى مستشفى خاص حيث لم يكن لي حق رؤيتها إلاّ في الساعات المخصصة للزيارة. وكان طبيبها لا يدرك ما نظهره من قلق وأهمية لحالة مريضته.... كان تشخيصه واضحًا: إنفلونزا مصحوبة بنزلة شعبيَّة مع أعراض غير واضحة. وكان يقول عنها: "لكنها منتشرة. إنها حساسية للمضادات الحيوية لاشك في ذلك". وكان على حق فليس للمرض الذي نعانيه ما هو غريب أو غامض. ولقد قمت بمقابلة الطبيب النفسي الخاص بوزارة الداخلية، وكان رجلاً غريبًا في أطواره. ينتصب على كعبيه ثم ينزل إلى أسفل، ويرمش بعينيه من خلف زجاج نظارته السميك جدًّا. قام هذا الشخص باستجوابي في أمور عديدة، وكان يحك رأسه عند كل جواب أقدمه له وكأنه يقول: مفهوم.

ولقد أجرى على "جينجر" عدة أساليب سيكولوجية(نفسية) عند فحصه إياها، غير أني لم أتمكن من الحصول على التفاصيل من أي فرد في العيادة. ربما لأنه لم يجد في الأمر شيئًا يستدعي القلق. كنت خلال هذه الفترة قد تجنبت أصدقائي وقطعت جميع علاقاتي. وكان الفراغ الذي عانيته منه غير محتمل. في النهاية، اتصلت هاتفيا بـ"بوبي" عند محل الزهور الذي تعمل فيه وطلبت منها أن تحضر عندي لتناول العشاء. وافقت بلا تردد. اصطحبتها إلى مطعم "فانتزي". كانت تثرثر في مرح وبذلك وجدت في صحبتها بعض الارتياح. غير أني لم أدْعُها من أجل ذلك انتظرت حتى نهاية الوجبة وبدأت التجربة. سألتها إذا كانت تتذكر صديقتي "جينجر". اتسعت حدقتا عينيها وأجابت:

– بالتأكيد. تُرى ماذا أصبحت؟

– إنها مريضة.

– مسكينة!

– لقد تورطت في موقف غريب. أعتقد أنها أخذت رأيك فيه، خدعة "الحصان الشاحب" . لقد كلفها ذلك مبلغًا كبيرًا. صاحت "بوبي" وعيناها مازالتا مفتوحتين واسعتين:

–كنت أنت؟مكثت لحظةدون أن أفهم ما تقصده. وفجأة اتضح لي أني – حسب رأي "بوبي" – هذا الرجل الذي تضعه السيدة المريضة عقبة في طريق سعادة "جينجر" . اضطربت عندما اكتشفت جنبًا الواحد الآخر، وغفلت عن التعبير عن أسفها عن موقف " الحصان الشاحب" ثم همست وقد بدا عليها الاهتمام:

– هل العملية تمت؟

– يبدو أنها أتت برد فعل سيئ على "جينجر" . هل سبق لكِ سماع حدوث أمر مثل ذلك؟

– لا.

– من البديهي.... إنك تعلمين أمر ما يجري في " الحصان الشاحب" أليس كذلك؟

– كنت أجهل أين موقعه. هل في الريف أم في مكان آخر....

– .... لم أتمكن من الحصول على معلومات أكيدة من "جينجر" .... انتظرت.... من باب الحذر.

– قد تكون شائعات، هذا ما اعتقده.... شيء ما من هذا النوع. صادرة من ال "ستراتوسفير" كما يفعل الروس. كانت في أثناء ذلك قد لجأت إلى خيالها.

– نعم، لكن– ولا شك في ذلك– لا بد وأن يكون خطيراً حتى أن "جينجر" مرضت بهذا المرض الخطير.

– وكان الأفضل أن زوجتك هي التي تموت. أليس كذلك؟ أجبتها(وقد قبلت الدور الذي فرض عليَّ):

– نعم .... لكن وكأن ذلك لم يأتِ بمفعول، حدث ارتداد.

– تقصد(أبدت "بوبي" حركة تدل على التركيز الذهني) كما يحدث مع التيار الكهربائي عندما يتم وضع أحد الأسلاك مكان الآخر؟

– بالضبط. هل لديك فكرة عن حدوث مثل هذه الحالة قبل الآن؟

– لكن.... ليس بمثل هذه الطريقة.

– أي طريقة إذن؟

– إن لم يدفع الشخص قيمة الجلسة.... بعد ذلك. لقد عرفت رجلا رفض الدفع (أخفضت صوتها حتى كاد أن يكون همسًا) و.... وقُتل في المترو.... لقد سقط من الرصيف أمام القطار بالضبط.

– ربما أنها كانت حادثة؟

– آه، لا.. إنهم "هم" الذين قاموا بذلك. ملأت كأس "بوبي" بالشراب، مقتنعًا بأنها قادرة أن تساعدني. لكن كيف أفاتحها في الموضوع. إذا صدرت مني كلمة غير مناسبة لأفكارها، فسوف تتحول عني في الحال.. قلت:

– إن زوجتي مصابة بالشلل، لكنها في حالة مستقرة أي حالتها لا تسوء. قالت "بوبي" وهي ترتشف كأسها على بلعات صغيرة:

– يا خسارة.

– ما الذي ينبغي أن أعمله؟.... إنها "جينجر" هي التي أعدت كل شيء.... أفي إمكاني الاتصال بشخص ما؟ قالت الفتاة، بلا إقناع:

– يوجد عنوان في "بيرمنجهام". قلت مؤكداً:

– إنه مغلق. أتعرفين غيره؟

– "إيلين براندون"، ربما.... لكن قد يدهشني....فوجئت تمامًا لهذا الاسم المجهول غير المصحوب بأيّ معلومة؛ لذلك طلبت بعض المعلومات عن هذه الـ"إيلين". قالت "بوبي":

– إنها امرأة بلا حرارة، تغيّر من تسريحة شعرها ولا تحتذي أحذية ذات كعب إبرة. كنت معها في الفصل، وكانت تحصل دائمًا على الجوائز خاصة في الجغرافيا.

– وما هي علاقتها بالحصان الشاحب؟

– في الواقع لا شيء. مجرد فكرة أتتها واستقالت.

– من أين؟

– من الـ "C.R.C"

– أي "C.R.C"

– لست أدري. المنزل الذي تعمل لأجله يدعى هكذا. وهي تقوم ببحث عن أذواق وميول الزبائن. ليست علبة ضخمة.

– وماذا كانت أعمال "إيلين براندون" بالضبط؟

– القيام بجولات وتوجيه أسئلة للناس.... ليس إلا... هذا عن معجون الأسنان، ونوع الفرن الذي تستخدمه وماركة الإسفنج الذي يستخدمونه.... وأكثر من ذلك، الأمر الذي يتسبب في إزعاج الناس ومضايقتهم. مثل ذلك التصرف لصالح من؟

– لاشك في أنه لصالح "C.R.C" . اعتراني إحساس غريب. كان الأب "جورمان" – ليلة اغتياله– قد تم استدعاؤه عند سيدة في حالة احتضار وكانت هذه السيدة تعمل لحساب أحد المنازل من هذه الفئة، وكانت "جينجر" قد استقبلت يوما ما إحدى الباحثات من هذا النوع.

– ولماذا تخلت عن العمل؟ هل تضايقت؟

– لا أعتقد ذلك؛ لأنها كانت تحصل على مكافأة مجزية لكنها تخيلت أن.... وراء هذا الموقف أمر آخر....

– ظننت أن هذا المنزل مرتبط بـ"الحصان الشاحب" ؟

– لا أدري بالضبط. قد يكون هكذا.... على أي حال إنها تعمل حاليا في مقهى "توتنهام كورت رود" .

– أعطني عنوانها.

– هذا المقهى لا يناسبك. إنه ليس من مستواك والسيدة كذلك.

– أنا لا أرغب في مبادرتها بأي كلام، إنما أريد الاستفسار عن طبيعة

القطاع الذي كانت تعمل به؛ إذ إني أفكر في شراء أسهم في مشروع من هذا النوع. أردفت "بوبي" وقد أعجبت بالفكرة:

– آه.. حسنًا.

❖❖❖❖❖

حاولت عبثًا في صباح اليوم التالي الاتصال بـ"ليجين" هاتفيًا، وأخيرًا– بعد عدة محاولات– نجحت في الاتصال بـ"كوريجان"

– أخبرني يا "كوريجان" عن رأي هذا الطبيب النفساني بشأن "جينجر" وعمّا قاله عن مرضها.

– لقد قال الكثير. لكن إنك تعلم يا "مارك" أن كثيرين يصابون بالنزلة الشعبية أو حتى الالتهاب الرئوي. ليس في الأمر ما يدعو للانزعاج ولا غرابة فيه.

– نعم، كما أن كثيرين ممن كانت أسماؤهم مسجلة على القائمة ماتوا بالالتهابات الرئوية أو القرح المعدية وأورام المخ وبالباراتيفوئيد والعديد من الأمراض المعروفة.

– إني مدرك ما تقوله.... لكن ماذا نستطيع عمله الآن؟

– لقد ساءت حالتها. أليس كذلك؟

– آه. نعم.

– يجب التصرف: التوجه إلى "ميش ديبنج" وإجبار "تيرزا جري" –وذلك بتهديدها – على القيام بإفساد هذا السحر....

– نعم، وقد يأتي ذلك بفائدة ما.

– في إمكاني أيضًا الذهاب لمقابلة "فينابل". حينئذ قاطعني "كوريجان":

– "فينابل" لا شأن له بالموضوع. إنه شخص معوق.

– مازلت أتساءل عن ذلك، ولي رغبة في انتزاع الغطاء الذي على ساقيه والتأكد بنفسي.

– لكننا نعلم يقينًا....

– انتظر قليلاً . . . . لقد تقابلت مع هذا الصيدلي "أسبورن" في "ميش ديبنج" .اسمع ماقاله لي وسردت له قصة "أسبورن" .

– إنه شخص مغرور ولا يقبل الاعتراف أبداً بأنه من الممكن أن يخطئ.

– لكن يا "كوريجان" . . . . ترى هل ما يتوقعه ممكن؟ بعد لحظة تردد قال "كوريجان" مؤيداً:

– نعم ممكن لكن هذا البحث يحتاج إلى عدد كبير للقيام بهذه العملية، وكذلك مبلغ ضخم لكي يعترفوا.

– وأيضاً لقد أثرى. هل "ليجين" اكتشف مصدر ثروته؟

– ليس بالضبط. بداهة توجد ثغرة في أمر هذا الشخص. إن له ماضياً مشبوهاً، والبحث ربما يحتاج إلى سنوات. هل تشك في أنه على رأس موضوعك؟

– نعم، بحسب رأيي . أشك في أنه المحرك لكل شيء.

– ربما. على أي حال لقد بدا لي ذكياً للقيام بمثل هذه الأمور، لكنه بالتأكيد لا يندفع في أمر اغتيال الأب "جورمان" بنفسه.

– عند الضرورة. كان لابد من منع الأب "جورمان" من الإفصاح عمّا صارحته به هذه السيدة عن أنشطة "الحصان الشاحب" . من جانب آخر. . ثم توقفت.

– آلو. هل مازلت على الخط؟

– نعم. . لكن وافتني الآن فكرة، ومن جانب آخر يجب أن أخرج، عندي موعد مهم. وضعت سماعة التليفون وألقيت نظرة إلى ساعة الحائط. عندما وصلت إلى الباب رن جرس التليفون. ترددت، لا شك في أنه "جيم كوريجان" الذي يعيد الاتصال الهاتفي لكي يعرف ما هي فكرتي. ولم تكن لي أي رغبة في التحدث معه من جديد .لكن رنات التليفون استمرت. . . . عدت إلى الحجرة ورفعت السماعة:

– آلو.

– هل أنت "مارك"؟

– نعم، من المتكلم؟

– إنه أنا. اسمعني عندي شيء ما أرى أن أقوله لك. عرفت الصوت إنه صوت سيدة" أوليفييه"، قلت:

– آه، آسف، إني متعجل. سأطلبك فيما بعد.

– لا لا. لابد من أن تستمع لي. إنه أمر قهري.

– اختصري لأني على موعد.

– وإذا تأخرت قليلاً....

– لا،لا، يستحيل عليَّ الانتظار.

– اسمعني يا"مارك". الأمر مهم، إني واثقة من ذلك. نظرت مرة أخرى إلى ساعة الحائط.

– وبعد.

"ميللي" عندها التهاب في اللوزتين، وكانت متألمة جداً فتوجهت إلى الريف.... عند أختها. قلت:

– آه، لكن حقا....

– استمع، أنا لم أبدأ حتى الآن. إلى أين وصلت؟ آه نعم. عندما مرضت"ميللي" طلبني مكتب التشغيل....

– أؤكد لك أن....

– قيل لي إنه من الصعب الحصول على طاقم عمل حاليا ولكن بالنسبة إليَّ (كدت أخنقها لو تمكنت من ذلك). أردفت:

– .... وأخيراً تقدمت لي سيدة. هل تعلم من هي؟

– وكيف أعرف ذلك؟ أؤكد لك....

– "إيديث بينس".... اسم مضحك أليس كذلك؟ أعتقد أنك تعرفها.

– بالتأكيد لا. بل ولم أسمع أبداً عنها قبل الآن.

– إنك تعرفها ولقد رأيتها مؤخراً. لقد خدمت سنوات عديدة عند

إشبينتك الليدي "هيسكيث ديبوا" .

– آه . هي .

– نعم .لقد رأتك يوم ذهبت إلى هناك لأخذ لوحاتك .

– رائع وأعتقد أنك محظوظة بعثورك عليها" . تانت ميش" كانت دائمًا تشهد لها بالأمانة والإخلاص في العمل . لكن الآن . . . .

– انتظر . . أنا حتى الآن لم أتناول لب الموضوع . لقد حدثتني كثيرًا عن ليدي "هيسكيث ديبوا" وعن مرضها الأخير وقالت لي .

– ما الذي قالته لك؟

– نعم لقد جذب ذلك انتباهي حيث قالت : " المسكينة! كم من آلام عانت هذه السيدة التي كانت تتمتع بوافر الصحة بعد إصابتها بورم في المخ! وأي حزن لحق بها عندما شاهدت شعرها الكثيف الأبيض يسقط تلقائيًا على الوسادة!" وفي الحال فكرت يا "مارك" في "ماري دي لافونتين" التي فقدت شعرها هي الأخرى ثم تذكرت تلك الفتاة التي كلمتني عنها، كانت تتشاجر في المقهى مع فتاة أخرى كانت تنتزع لها شعرها . . إن الشعر لا ينتزع بسهولة يا "مارك" ، حاول شدّ بعض الشعر لكي تعرف، أمر غير طبيعي . لاشك في أنه مرض جديد . . . . ولابد أنها أعراض لشيء ما . . . . في هذه الأثناء كنت ممسكًا بسماعة التليفون بتلهف وقد شعرت بصداعٍ لا مثيل له . تفاصيل وصور "رودا" وكلابها على الخضرة . . . . ومقال كنت قد قرأته في مجلة طبية أمريكية في "نيويورك" . . . . وفجأة تحققت من أن السيدة "أوليفييه" لا تبغي إلاّ الثرثرة . قلت :

– ليباركك الله . إنك رائعة . وضعت السماعة . . . . ولكن لكي أرفعها في الحال . في هذه اللحظة شعرت أن الحظ ابتسم لي : إن "ليجين" على الخط . . . .

– أخبرني هل شعر "جينجر" يسقط بكثافة؟

– يبدو لي ذلك . لاشك في أنه بسبب الحمى .

– إني أخبرك بأن "جينجر" أصيبت بما أصاب الجميع : تسمم

بال" تاليوم" (عنصر فلزي مثل الرصاص) ليت الرب يتدخل قبل فوات الأوان.

الفصل الثاني والعشرون

– هل ستعيش؟ أحسست وقتئذ بأني عاجز عن الاستقرار وكنت أذهب وأجيء في الحجرة. و كان "ليجين" ينظر إليّ في صبر وتفهم للموقف.. قال:

– إنهم يعملون المستحيل، ثق بذلك. وكانت هذه الإجابة التي يرددونها لي لا تبعث إلى نفسي بالطمأنينة أبداً.

– هل يعرفون كيف يعالجون حالة تسمم با لـ" تاليوم" ؟ وهل تأكدوا أنه تسمم بال" تاليوم" ؟

– نعم.

– الآن حمداً لله. السبب ليس السحر ولا الشعوذة ولا التنويم" بأشعة الموت".. تسمم واضح. عندما أتذكر بأنها قذفتني مواجهة. لابد وأنها سخرت تماماً.

– عمّن تتكلم؟

– عن" تيرزا جري". عندما رأيتها لأول مرة كلمتني يومئذٍ عن أسطورة آل" بورجيا" والسموم التي يستخدمونها.. " زرنيخ" ، وليس أكثر من ذلك. لكن تحضير أرواح وديك أبيض وتعاويذ والصندوق الشهير المخصص لاستخدام الأرواح الوهميّة الحديثة. إننا لم نعد نثق بالساحرات وأعمال السحر المؤذية إنما نحن نثق في بالشائعات والتأثير والظواهر المتعلقة بالتأثير على النفس. وأراهن على أن هذا الصندوق ليس سوى مجموعة أسلاك كهربائية مع بعض المصابيح المتعددة الألوان. وفي إمكان" تيرزا جري" أن تنادي بأعلى صوتها. إنها تسيطر على قوات خفيّة، لن نقنعها أبداً باغتيال بواسطة صندوقها هذا.

– أتعتقد أنهن مقتنعات كلهن؟

– لا يبدو لي. عقيدة "بيللا" راسخة. فهي واثقة بقدرتها ومبتهجة لذلك. وهو وضع "سيبيل" . إنها وسيط جيد . فهي تلتقي بالأرواح ثم تجهل بعد ذلك كل ما تم. وهي تثق بكل ما تمليه عليها "تيرزا" .

– بذلك تكون هذه الأخيرة هي العقل المحرك؟

– فيما يخص " الحصان الشاحب " نعم لكن العقل الحقيقي فهو يعمل حاليًا في الخفاء (من خلف الكواليس) فهو واضع الخطط والمنظم. ولكل مكانه وعمله المحدَّد وليس أكثر من ذلك. أما "برادلي" فهو يهتم بالناحية التجارية ويجهل ما يتم في الأماكن الأخرى. وهو يتقاضى أجرًا مجزيًا طبعًا. الوضع نفسه بالنسبة لـ"تيرزا جري" .

– ما الذي جعلك تفكر في الـ"تاليوم" ؟

– لقد تجمعت فجأة عدة أحداث متناثرة لتكوِّن حدثًا واحدًا .أولاً مشاجرة الفتاة في "شيلسي" مع منافستها التي كانت تنتزع لها شعرها، وكانت تقول "إن هذا لا يؤلمها" ولم تكن شجاعة كما اعتقدت، إنما في الواقع إنها لم تشعر بأي ألم. "لقد قرأت أثناء إقامتي في "أمريكا" مقالاً عن التسمم بال(تاليوم) حيث كان عمال أحد المصانع يموتون الواحد تلو الآخر لأسباب خارجية متعدّدة: باراتيفوئيد وداء السكتة والتهاب الأعصاب الكحولي والشلل وأورام المخ وغيرها .... والأعراض تختلف طبعًا. من الممكن أن تبدأ بنوبة إسهال مع قيء مصحوبة بآلام قطنية. لقد أصيب أحدهم بشلل الأطفال، وفي أحيان كثيرة يحدث تغيير في لون البشرة.

– إنك تعرف الكثير عن الاصطلاحات الطبية.

– لأني استفسرت عن كل ذلك. وفي كل حالة من هذه الحالات، الشعر يسقط إن عاجلاً أو آجلاً ولقد حدث في فترة ما أنهم استخدموا مادة الـ"تاليوم"لإزالة الشعر لكنه ثبت أن له آثارًا جانبية خطيرة وكثيرًا ما يُستخدم في العلاج ويؤخذ عن طريق الفم ولكن بجرعات مقنَّنة وفقًا لوزن المريض. وهو الآن مستخدم في إبادة الفئران. وهي مادة عديمة الطعم قابلة للذوبان

ويسهل شراؤها. هناك شيء واحد: في الحالة التي تشغلنا تجنب التفكير في أنه قد يحدث تسمم.

– من هنا يأتي إلحاح "الحصان الشاحب" على أن يبتعد الزبون عن ضحيته المعينة. فهو لا يتمكن من الحصول على المزيد منه في شرابه أو طعامه ولا أن يقتنع بشراء الـ"تاليوم" أو أيّ نوع من أنواع السموم الأخرى، ومن هنا جمال العملية التي تتم عن طريق شخص لا صلة له بالضحية. شخص على ما أعتقد لا يظهر سوى مرة واحدة.... هل لديك فكرة؟

– مرة واحدة. ويبدو أن التي تدخل في اللعبة في كل مرة هي سيدة ذات مظهر غير معادٍ مزوّدة بمجموعة أسئلة خاصة بالمستهلكات المنتجة.

– وهل تعتقد أن هذه السيدة هي التي توزع السموم على هيئة عيِّنات؟

– من الممكن. وأعتبرها شريفة جدًّا، ودورها لا يوحي بأن نستهين به، وربما نستطيع الحصول على معلومة من "إيلين" التي تعمل في مقهى "توتنهام" في "كورت رود".

❖❖❖❖❖

وكان وصف "بوبي" لـ"إيلين براندون" كافيًا جدًّا.. شعرها المتموج والماكياج الخفيف الذي تتخضب به وكذلك الحذاء البسيط الذي تحتذي به، ولقد وافتنا بأنها أرملة ترعى طفلين تركهما لها زوجها الذي توفي في حادث أليم. وكانت قد عملت قبل المجيء إلى المقهى في C.R.C لأكثر من عام، وأنها قد تركت هذا العمل لأنه لم يعجبها(C.R.C) اختصار(تصنيف Clientele – Classification –Reactions) أي(ورد الفعل والعملاء) سألها "ليجين":

– لماذا ذلك؟

– هل أنت مفتش في الشرطة؟

– نعم.

– هل تجد– حسب رأيك– ما هو موضع شبهة في هذا العمل.

– إني أقوم بتحقيق بشأن هذا الموضوع. هل تركت هذا العمل؛ لأن بعض

الشكوك ساورتك هناك؟

– ليست لدي معلومات محدّدة ولن أستطيع موافاتكم بمعلومات كافية.

– إننا ندرك موقفك. لكن التحقيق سيظل في سرّية تامة.

–حقًّا، لديّ القليل جدًّا من المعلومات.

– على الأقل أفصحي عن سبب تركك العمل.

– شعرت بأنه تجري في هذا المكان أمور أجهلها.

– تقصدين أن هذا العمل لم يكن إلا ستاراً؟

– تقريبًا. كنت أشعر بأنه يخفي شيئًا ما لكن ما هو.. هذا ما أجهله. وأخبرتنا بأن عملها كان يتلخص في زيارة بعض الأفراد في العناوين المعطاة لها وتوجيه بعض الأسئلة إليهم وأن تعمل على تسجيل أجوبتهم.

– وأي غرابة وجدتِ في ذلك؟

– لقد بدت الأسئلة موضوعة بطريقة عشوائية، لا هدف لها وكأنها معدة لإخفاء شيء ما.

– حسب رأيك، ما هو هذا الشيء؟ فكرت قبل أن تجيب:

– كثيراً ما تساءلت– في فترة ما–إذا ما كان ذلك بهدف تدبير سرقات. لكن لا يمكن أن يكون ذلك هو الهدف؛ لأنهم لم يطلبوا منّي وصف الأماكن ونسبة الأمن ومتى سكان المنازل يعتزمون السفر لأيّ غرضٍ ما.

– وما هي الأشياء التي كنت مكلفة بالاهتمام بها؟

– كان هذا متوقفًا على: أحيانًا على المواد الغذائية: دقيق أو حساء على هيئة مسحوق (على شكل مكعبات) أو منظفات منزلية، أو مستحضرات تجميل: أحمر شفاه وكريم للجمال، أو بعض الأدوية المتداولة: بستيليا السعال أو غرغرة أو معجون أسنان أو أقراص مهضمة.... وهكذا.

– وهل كانوا يطالبونك بتوصيل عينات؟

– لا .

– كنت تكتفين بتوجيه الأسئلة وتسجيل الإجابات عليها .

– نعم .

– وماذا كان الهدف من هذه الاستبيانات ؟

– هذا ما يبدو لي غريبًا فعلاً ؛ لأنهم لم يفصحوا لنا أبدًا عن السر . على ما يبدو أنه كان بهدف منح بعض المصانع نسبًا عن الاستهلاك . . . . لكن لم تكن هناك نظرية واضحة ، عمل هواية . . . . ليس إلاّ .

– وحسب رأيك ، هل من بين الأسئلة التي يكلفونكم بتوجيهها سؤال يُفيد بالكشف عمّا يختفي خلف الأسئلة الأخرى ؟ قالت بعد لحظة تفكير :

– نعم . . وهذا يوضح افتقارهم إلى المنطق السليم . . . . ولكنني أجهل تمامًا ما لهذا العمل من أهمية . . . . ابتسم "ليجين" وأردف :

– إنك بالتأكيد لم توافينا بكل شيء .

– لا .حقا أنا لا أعلم شيئًا . مجرد توقعات وأحاسيس من ناحيتي . ولقد صارحت السيدة "دافيس" بذلك و . . . .

– هل وافيت السيدة "دافيس" بالأمر ؟ وهكذا كان "ليجين" محتفظًا بسكينته وطول أناته .قالت :

– وهي أيضًا لم تكن راضية عن ذلك .

– ولِمَ ؟

– قد تكون سمعت شيئًا ما عن الأمر بالمصادفة !

– ماذا ؟

– سبق وأخبرتك بأني لا أعرف شيئًا محدّدًا ، لكن المشروع كان لا يبدو لي شريفًا . في النهاية لا يهمنا ، طالما كانوا يعطوننا أجورًا مناسبة . . . . وليس في

ذلك ما هو غير شرعي. . . . وأنا لا أرى أي داع لمنح الموضوع هذه الأهمية.

– هذا كله.

– لقد أخبرتني كذلك، لكنني لم أفهم الدافع لذلك:

أشعر أحيانًا بأن نظرتي شريرة. حينئذ أخرج "ليجين" ورقة من جيبه وناولها إيّاها ثم قال:

– هل هذه الأسماء توحي إليك بشيء؟ أمسكت السيدة بالورقة وقرأت الأسماء وقالت:

– "أورميرود".

– هل تتذكرينه؟

– لا. السيدة "دافيس" هي التي كلمتني عنه. لقد توفي فجأة بعد إصابته بنزيف في المخ أليس كذلك؟ وكانت أيضًا قد صارحتني بأنه كان في أتم صحة، وأنها بمجرد النظر إلى الشخص يموت. وكانت تضحك وهي تقول ذلك لكنها كانت لا تسرُّ للفكرة وكان ذلك واضحًا تمامًا.

– هل هذا كل ما في الأمر؟

– حدث ذلك بعد فترة قليلة، عندما تقابلنا في أحد المطاعم بعد فترة لم نستطع أن نلتقي فيها، وأخبرتها بأني تركت الـ"**C.R.C**" للعمل في مكان آخر. فقالت لي: "إنك على حق، المفروض أن نسعى إلى ما يساعدنا على الحياة من فرص تُقدم إلينا. لِمَ أفقد وقتي في الاهتمام بشئون الآخرين؟". لم أفهم قصدها. . . . ماذا بالأمر؟ "ليس لدي أيّ تأكيد، لكن حدث ذات يوم أني عرفت شخصًا خارجًا من أحد المنازل ليس له فيها عمل وكان هذا الشخص يحمل كيسًا به بعض الأدوات. . . . . "كنت أتمنى معرفة فيما استخدم هذه الآلات" سألتني كذلك. إذا كنت قد صادفت ذات مرة سيدة

تدير أوبرج "الحصان الشاحب" عندما دهشت لهذا الاسم ضحكت قائلاً: اقرئي التوراة جيداً مرة أخرى لم أفهمها. ولم أرها من بعد، كما إني أجهل إذا كانت مازالت تعمل لحساب الـ"C.R.C" أم أنها تركته.

– السيدة "دافيس" ماتت.

– ماتت! كيف؟

– بالتهاب رئوي.... منذ شهرين.

– آه! خبر محزن.

– هل عندكِ أخبار أخرى ياسيدتي؟

– لا أعتقد. لقد سمعت آخرين يتحدثون عن هذا " الحصان الشاحب". لكن عندما نوجه إليهم أسئلة للاستفسار عنه يسكتون في الحال.... ويبدو أنهم خائفون.... وأنا لا أرغب في التدخل في الأمور الخطيرة أو المشبوهة. عندى طفلان، بصراحة أنا لا أعرف أكثر مما أدليت لكم به. ألقى إليها "ليجين" نظرة ثاقبة ثم تركها تنصرف. ثم أعلن المفتش بعد انصراف السيدة:

– هذا يفيدنا قليلاً. كانت السيدة "دافيس" تشك في الأمور الجارية، تغاضت عنها في بدء الأمر لكن عندما مرضت اعترفت للكاهن. لكن ما الذي كانت تعرفه بالضبط؟ مات كل من كانت أسماؤهم مدّونة على القائمة. من هنا تأتي عبارة "عين شريرة". لم تكن هناك سوى خطوة لكنه لم يكن السؤال الأساسي.. من الذي رأته خارجًا من منزل كانت تزوره، وكان متخفيا في زي عامل؟ وطالما عرفته لابدّ وأنه عرفها. لقد أصبحت خطيرة لذا كان لا بدّ من أن تختفي ومعها الأب "جورمان" لأنها وافته بالأمر. ثم رفع "ليجين" عينيه وأردف:

– هل تتفق معي في الرأي؟

– تماماً.

– هل عندك فكرة عن الجاني؟

– نعم، لكن....

– اعلم أننا لم نحصل بعد على دليل قاطع. التزم الصمت برهة، ثم نهض:

– لكننا سنحصل عليه، الوسائل لا تنقصنا وسوف نقوم بتجربتها كلها.

الفصل الثالث و العشرون

حدث بعد ذلك بثلاثة أشهر أن توقفت سيارة أمام باب" بريورز كورت". خرج منها أربعة رجال، وكنت أحدهم، والآخرون كانوا: المفتش"ليجين" والضابط"ليك" والسيد"أسبورن" الذي كان يجد صعوبة في إخفاء سروره؛ لأنه ضمن المجموعة. حذره"ليجين":

– عليك بالتزام الصمت.

– بالتأكيد ياسيدي، اعتمد عليّ.. لن أنطق بكلمة.

– أرجو ذلك جيداً.

– إنه تقدير عظيم. أعلم ذلك، وإن كنت لا أدرك السبب بالضبط.... ولم يوافه أحد بأي معلومة. شد"ليجين" كوردون الجرس وطلب مقابلة السيد"فينابل"، ولم يُظهر هذا الأخير دهشته لزيارتنا المفاجئة هذه. إنه شخص لطيف وأنيس حقا. وعندما أبعد مقعده المتحرك لكي يفسح المجال للآخرين، بدا لي أنه لا يستطيع السير على قدميه.

– يسرني أن ألتقي بك ثانية يا سيد"إستر بروك". يبدو أنكِ تكرّس وقتًا كبيراً لهذه المنطقة. يا سيدي المفتش أعترف لك بأني أرى في زيارتك ما يثير

فضولي. ما الذي في وسعي القيام به من أجلكم؟ لقد نزحت إلى هذا المكان الهادئ لكي أستريح فيه. قال "ليجين" في هدوء تام:

– إنه من أجل موضوع لاشك في أنه بإمكانك مساعدتنا فيه.

– وما هو؟

– حدث في السابع من شهر تشرين الأول" أكتوبر" أن اغتيل الأب الكاثوليكي" جورمان" في شارع" ويست" في ضاحية" بادينجتون" . قيل لي إنك كنت في هذه الأنحاء وقت حدوث الجريمة فيما بين الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة والساعة الثامنة والنصف وإنك شاهدت ما قد يكون له علاقة بهذا الموضوع.

– أنا أكون في هذا المكان في هذه الفترة؟ أشك في ذلك! على قدر ما أتذكر أني لم أتواجد قطٌّ في هذا الحي ولا أعتقد أني كنت في "لندن" في هذا المساء؛ لأني لا أتوجه إلى هناك إلاّ عندما تكون لي فرصة حضور بيع بالمزاد أو لاستشارة طبيبي الخاص من حين إلى آخر.

– على ما أعتقد أنه الأستاذ الدكتور" ويليام ديجدال" في "هارلي ستريت" . فما كان من "فينابل" أن ألقى إلى رجل الشرطة نظرة باردة ثم قال:

– لك من المعلومات ما هو كافٍ يا سيدي المفتش.

– ليس بالقدر الذي أتمنى الحصول عليه.. ومع ذلك لقد خاب ظني عندما علمت أنك لا تستطيع معاونتي. وكل ما أطلبه منك هو معلومة أو إيضاح عن وفاة الأب "جورمان" .

– عفواً. أنا لم أسمع عن هذا الاسم إلاّ اليوم.

– كانت هناك سيدة في حالة احتضار قد طلبت الأب الكاهن. وكانت قد تواجدت لا إراديا في شركة متخصصة في القضاء على الأشخاص

المزعجين. . . . مقابل مبالغ مالية طبعًا. قال "فينابل" :

– الفكرة ليست جديدة في "أمريكا" . . . .

–كان هذا القطاع يستخدم وسائل خاصة من الممكن وصفها بأنها نفسية وذلك بإثارة "الرغبة في الموت" . . . . الموجودة عند كلٍّ منا.

– بحيث ينتحر هذا الشخص لإرضائك. ألا ترى معي سيدي المفتش أنه يصعب تصديق ذلك؟

– لا. لا وجود للانتحار إنما وفاة طبيعية.

– نعم؟

– الحي العام الشهير بهذه العملية في منطقة تدعى " الحصان الشاحب" .

– آه، الآن بدأت أفهم وهذا سر مجيئك إلى قريتنا: " تيرزا جري" وما تجريه من أعمال غبيّة. عن نفسي أنا لم أصدق قطُّ هذه السخافات. . . . مجرد خزعبلات ولها صديقة وسيطة غاية في الغباء وساحرة المكان هي التي تعد لهن الطعام. لقد أصبحت لتلك السيدات المجنونات شهرة في البلد. لكن لا تخبرني بأن" سكوتلانديارد" تثق بذلك.

– نعم ياسيدي.

– وهل أنت تثق بأن ما تتلوه "تيرزا" والخرافات التشنجية التي تقوم بها "سيبيل" وسحر "بيللا" كل ذلك يعمل على أن يموت الشخص وعن بعد؟

– آه لا، سبب الوفاة هو التسمم بالـ "تاليوم" .

– ماذا تقول؟

– تسمم بأملاح الـ "تاليوم" . أمر بسيط، لكن لابد لإجراء ذلك من ستار ومن ادعاء علمي ولغة حديثة مصطنعة من تعاويذ قديمة. قال "فينابل" مفكرًا:

– "تاليوم" .. لا أعتقد أني سمعت عن هذا قبل اليوم.

– أبداً؟ إنهم يستخدمونه كمزيل للشعر للأطفال الذين يصابون بالقراع، ومن السهل الحصول عليه، ويوجد منه باكو مخفي في مستنبتك الزجاجي (مكان زجاجي لحماية النباتات).

– عندي وفي مستنبتي الزجاجي؟ مستحيل!

– نعم ولقد قمنا بتحليل جزءٍ .... حينئذٍ بدأ "فينابل" يضطرب.

– لابد من وأن أحداً ما وضعه دون أن أدري. إني أجهل وجوده تماماً

– حقا؟ أليس عندكَ وسائل كثيرة ياسيدي.

– وما شأن ذلك بالموضوع؟

– أعتقد أن ما سمعته عن أن بيت المال أي (خزانة الدولة) يهتم بعائد أملاكك الحقيقية. هل هذا صحيح؟

– من البديهي أن نظام الضرائب في "إنجلترا" من العوامل التي تجعل الحياة فيها مملّة، لذلك تجدني أفكر جديًّا في الذهاب إلى "بربودا" للإقامة فيها.

– لا أعتقد أنك ستتمكن من ذلك.

– هل في ذلك تهديد يا سيدي المفتش؟ لأن في هذه الحالة....

– لا، لا، مجرد رأي. أترغب الآن معرفة كيف تتصرف في مثل هذا الموقف؟

– بالتأكيد سيادتك على استعداد لتلقيني ذلك....

– منظمة ممتازة، والمسؤول عن التفاصيل المالية محامٍ ممتاز له مكتب في "بيرمنجهام"، يستقبل فيه زبائنه ويتعامل معهم. السيد "برادلي" يقبل مراهنات مختصة بموت أحد الأفراد. السيد "برادلي" شخص متشائم. إذا كسب الرهان فعلى الزبون أن يدفع وإلاّ يصيبه سوء. وبعد التفاهم مع

السيد "برادلي" على الزبون أن يزور "تيرزا جري" التي تقدم له مشهداً ذا تأثير في الحاضرين. من جانب آخر توجد سيّدات شريفات يعملن كموظفات عند إحدى هذه الشركات العديدة التي تهتم بإجراء بحث أو استبيان عن أذواق المستهلكين بعد تزويدهن بمجموعة أسئلة: أي نوع من الخبز تفضل؟ وما هي مستحضرات التجميل التي تستخدمها.... وهكذا.... إلخ وبالتالي تتوجه تلك السيدات إلى العناوين المعطاة لهن وحينئذٍ يأتي دور مؤسس هذه المنظمة. في إمكانه ارتداء زيّ بوّاب، وممكن أن يكون أحد الكشّافين للغاز أو المياه أو أن يكون سبّاكًا أو كهربائيًّا.... على أي حال سيكون مزوداً بأوراق تثبت شخصيته، من باب الاحتياط لئلا تُطلب منه(وإن كان نادراً ما يحدث ذلك). ومهما كان الدور الذي سيقوم به فهدفه في منتهى البساطة: استبدال سلعة معيّنة- ثم اختيارها وفقًا للأجوبة المعطاة للباحثين-بسلعة لها نفس المظهر الخارجي ولكنها تختلف في التركيب. وبعد قيام هذا الشخص بمهمته.... ينصرف لكي لا يعود إلى الحي مرة أخرى. في بدء الأمر لا يحدث شيء، ثم يصاب هذا الشخص بمرض. والطبيب لا يجد لمرضه سبباً واضحًا، لذلك يقوم بمتابعة نظام حياة المريض، لكن ما الذي سيدفعه إلى الشك في مستحضر تم استخدامه طوال سنوات؟

أشاهدت الآن جمال اللعبة؟ ها هو القائم بالعملية يصبح مجهولاً. وبالتالي يصعب إدانته؟

- لكن، كيف تعرفون مثل هذه الأمور؟

- عندنا أساليب للحصول على الحقائق والتأكد من صحة بعض الشكوك، مثلاً نأخذ معنا كاميرا حيث من السهل القيام بتصوير أحد الأشخاص دون أن يشعر بذلك. بذلك نحصل على صورة للبوّاب والموظف المسؤول عن أي

مرفق من المرافق. وهناك الشارب المزيّف والأسنان الصناعية ومن السهل القيام بها. حقًّا إن التطابق شيء مشوق جداً ولقد قامت به في البداية السيدة "مارك إستر بروك" "وكاترين كوريجان" والسيدة "إديث بينس". مثال آخر، هذا الشخص- السيد "أسبورن" - الماثل أمامك على استعداد لأن يقسم بأنه رآك متتبعًا الأب "جورمان" في "بارتون ستريت" مساء اليوم السابع من شهر تشرين الأول "أكتوبر" حوالي الساعة الثامنة. حينئذٍ صاح "أسبورن" وهو يرتجف:

– لقد رأيتك ووصفتك بالضبط.... أردف "فينابل":

– ربما بالضبط فعلاً؛ لأنك لم ترَ السيد "فينابل"، ولأنك لم تكن على عتبة محلك. لقد كنت أنت ذاتك على الرصيف المقابل متتبعًا الأب "جورمان".... وأنت الذي قتلته!

– ماذا؟ وبدا "أسبورن" في مظهر غريب: الفم مفتوح والعينان بارزتان.

– اسمح لي يا سيدي أن أقدم لك السيد "زاكاريا أسبورن"، صيدلي "بارتون ستريت" في ضاحية "بادنجتون" لقد أظهرت اهتمامك عندما أخبرتك بأن السيد "أسبورن" مراقب منذ فترة، وأنه وضع "باكو" من أملاح الـ"تاليوم" في مستنبتك. ولمّا كان لا يعرف إعاقتك، راقه أن ينسب لك دور الخائن في حجرته. وقد أبدى عناداً أكثر من أن يكون غباءً، إذ رفض الاعتراف بخطئه.

– غبي! كيف تجرؤ! لو كنت تعلم ولو كانت عندك أدنى فكرة عمّا فعلت.... وما الذي أستطيع القيام به.... أنا.... وكان "أسبورن" يتلعثم من شدة الغيظ ثم بنبرة عتاب وديعة أجاب "ليجين":

– كان لا ينبغي أن تكون بمثل هذا الدهاء. لو أنك مكثت هادئًا في

محلك، لما أتيت إلى هنا- لأنه واجبي- لكي أخطرك بأن ما ستدلي به حاليًّا قد يكون.... فما كان من "أسبورن" أنه أخذ يعوي.

الفصل الرابع والعشرون

- أخبرني يا "ليجين".. لدي بعض المعلومات أتمنى الحصول عليها؛ لأني تواجدت على انفراد مع المفتش بعد انتهاء الإجراءات الرسمية.

- أعتقد أنك فوجئت؟

- بالتأكيد؛ لأني كنت واثقًا بوقوع المسؤولية على "فينابل". ومن جانبك لم تبد لي أي لمحة عن عدم إدانته....

- لم يكن في استطاعتي السماح لنفسي بذلك. إذ لابد أن يكون العمل في إطار محدود والخطة محبوكة من أجل ذلك قمنا بترتيب كل هذه المسرحية بالاتفاق مع "فينابل". كان ينبغي أن نمنح "أسبورن" خيطًا، ثم إيقاعه في الفخ في الوقت المناسب. وكانت الفكرة ستنجح.

- إنه مجنون.

- حاليًّا نعم، لكنه لم يكن مجنونًا في البداية. كان من فرط إحساسه بأنه مسيطر على حياة الناس، يعتقد أنه أذكى من كل الناس.

- بذلك كان "فينابل" يعمل في الخفاء. هل قبل فكرة الاشتراك في هذا الأمر؟

- لاشك في أنه وجد في ذلك ما يسليه، هذا من جانب ومن جانب آخر لقد كان متصلفًا نسبيًّا مظهرًا بأن اللعبة المحبوكة تعادل لعبة أخرى.

- وماذا يعني ذلك؟

- كان لا ينبغي أن أصارحك بذلك، لكن في النهاية اسمعني: حدث ذلك

منذ ثماني سنوات، عندما تم الاعتداء على عدة بنوك وسرقتها. كما هو المعتاد أُعدت العملية بواسطة شخص لم يكن له دور في ذلك قط. وكانت لدينا وقتئذٍ شكوك كثيرة واحتمالات لا حصر لها ولكن وجود الدليل أكيد. لقد اختفى الرجل وبدهائه لم يكرر مغامرته ثانية. لا أقول أكثر من ذلك عن هذا الموضوع. لقد كان شخصًا نذلاً أكثر من أن يكون سفاحًا.

– وهل شككت في "أسبورن" منذ البداية؟

– هذا الشخص كان يسعى إلى الشهرة. وكما قلت له إنه لو كان قد احتفظ بهدوئه، لما طرأت على بال أحد فكرة الشك في المحترم" زاكاريا أسبورن" الصيدلي. لكن الوضع دائمًا يبدو هكذا غريبًا مع أولئك السفاحين، إنهم يسعون إلى لفت الأنظار إليهم بطريقة أو بأخرى.

– الرغبة في الموت.... إحدى نظريات "تيرزا جري" المتغيرة. قال "ليجين" بنبرة جادة:

– أفضل ما يمكن بالنسبة إليك وفيه فائدتك، هو أن تسرع بنسيان ما قالته لكَ هذه السيدة. أعتقد أنه قد تكون الوحدة هي أحد العوامل وكذلك يجب الاعتقاد بأنك شخص ذكي أكثر منها، لكنك محروم من جلسة تتعرف بها.

– لكنك لم تخبرني حتى الآن عمّا دفعك إلى الشك فيه؟

– عندما بدأ يكذب. أول ما قام به هو تقديم وصف دقيق جدًا للشخص الذي كان يتبع الأب "جورمان"، وكان واضحًا جدًا. إنه لا يستطيع القيام بذلك وهو على الجانب المقابل من الطريق بسبب الضباب. وإذا سلّمنا بوصف الأنف، لكن تفاحة آدم مستحيل، من البديهي اعتبار ذلك كذبًا بريئًا.... لقد كانت لـ"أسبورن" شخصية عجيبة. إذ إنه بدأ بتلقائية يحدثني عن نفسه

مقدمًا لي صورة لشخص طالما تمنّى أن يكون في وضعه، غير راضٍ عن فكرة التشبّه بوالده لذلك حاول العمل في التمثيل. ولا شك في أنه كان مفتقرًا إلى المرونة، حتى أتته الفكرة في أن يكون شاهدًا، وأن يعاون على اتهام سفّاح. كيف ساورته فكرة أن يكون هو أحد كبار الجناة حيث يربك العدالة، إننا لا ندري عن ذلك شيئًا. وإذا عدنا إلى البداية، كان وصفه للشخص الذي يدّعي أنه رآه في الشارع ينطبق تمامًا على شخص يكون قد رآه فعلاً ذات يوم. إذن لا شك في أنه رأى "فينابل" يومًا ما في سيارته في "بورنماوث" ورسخت ملامحه في ذهنه دون أن يتحقق من أنه مصاب بالشلل. من جانب آخر كان "أسبورن" صيدليًّا. فكرت في أن قائمة الأسماء التي عثرنا عليها تكون دليلاً لنا. لكن لا.. وكان يجهل أن السيد "فينابل" الذي رآه في "ميش ديبنج" مصاب بالشلل، وعندما علم بذلك تمسك بنظريته. زيارتي له في "بورنماوث" قد أثمرت.

– لكن فيم كان ينفق كل ما يحصل عليه من مال؟ أعتقد أنه لا يقوم بذلك مجانًا.

– آه، لا. لقد تواجد في المجتمعات وفي أسفار كثيرة وكم من حفلات حضرها، وكان إحساسه بالعظمة يزداد مع كل جريمة يرتكبها. وإني واثق بأنه سوف يبتهج عندما يتواجد في قفص الاتهام (قبلة أنظار الحاضرين).

– وماذا كان يفعل بأمواله.

– آه. أمر بسيط. لو لم أكن قد توجهت إلى مسكنه لما أيقنت أنه بخيل جدًّا. فهو شخص يحب المال لذاته وليس للاستفادة به، إنما لمجرد امتلاكه. أعتقد أنه يجمع كل ما يحصل عليه.

الفصل الخامس والعشرون

كانت الأمور تسير بطريقة طبيعية في "موش ديبنج" . كانت "رودا" تهتم بالعناية بكلابها، أعتقد أنها في هذه المرة حالة؟ عندما اقتربت، رفعت عينيها وسألتني إذا كنت أسمح لأعاونها. تجاهلت هذا العرض واستفسرت عن "جينجر" .

– لقد ذهبت إلى " الحصان الشاحب" .

– ماذا؟

– إنها تدَّعي أن لها عملاً هناك.

– لكن المنزل فارغ.

– أعلم ذلك.

– إنها ترهق نفسها؛ لأنها مازالت....

– لاتنزعج هكذا... "جينجر" على مايرام. هل عندك آخر كتاب للسيدة "أوليفييه" بعنوان الكتوّةُ البيضاء (الببغاء الأبيض). إنه هناك على المنضدة.

– ليبارك الله السيدة "أوليفييه" و"إديث بينس" .

– ومن هي "إديث بينس" ؟

– إنها سيدة تعرفت على شخص في صورة فوتوغرافية كانت خادمة مخلصة للمرحومة إشبينتي.

– أنا لا أفهم شيئًا مما تقول. ماذا دهاك يا "مارك" ؟ لم أجبه واتجهت نحو "الحصان الشاحب" . تقابلت مع السيدة "دان" في الطريق. حيتني في حماس، ولوّحت بذراعها تجاه "الأوبرج" القديم- الفارغ والهادئ- تحت شمس الخريف.

– طوال هذه القصة، كان لزامًا عليَّ أن أكون غبيًّا. لم أجد أي تعامل

خيالي مع الشيطان ولا أي عظمة جهنمية. غاية ما في الأمر بعض الخدع الفظة من أجل الحصول على المال. مواقف خالية من السمو والرفعة لا تتسم إلاّ بالدونية والحقارة.

– يبدو أنك اتفقت في الرأي مع المفتش "ليجين"؟

– هذا الرجل يعجبني، هيّا بنا ندخل لرؤية "جينجر"

– ماالذي تقوم به في الداخل؟

– إنها تنظف شيئًا ما. شعرنا برائحة "تيربينتين" قوية عند المدخل و"جينجر" غارقة وسط زجاجات وبعض الخرق. ورفعت رأسها عندما أقبلنا إليها. كانت لاتزال نحيفة وشاحبة وكانت تغطي رأسها بإيشارب لأن شعرها لم يكن قد نما بعد. كانت وكأنها خيال "جينجر". أعلنت السيدة "دان كالتروب" التي كعادتها قرأت أفكاري:

– إنها على ما يرام. أشارت "جينجر" إلى اللافتة القديمة وقالت:

– انظروا. بعد أن أزالت ما كان عليها من تراب السنين، بدا الحصان وفارسه كأنه هيكل عظمي ذو عظام لامعة. وإذا بصوت السيدة "دان" يرتفع رنانًا وعميقًا من خلفي وهي تقول:

– سفر الرؤيا، الإصحاح السادس الأية 8: "ورأيت فرسًا أخضر (شاحبًا) والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه..." التزمنا الصمت لعدة ثوانٍ... إلى أن أضافت السيدة "دان":

– والآن يجب عليّ أن أنصرف إلى مجلس أمهات الأسرة. توقفت على عتبة الباب وأومأت برأسها إلى "جينجر" وأعلنت:

– ستكوني أمًّا جيِّدة. علت الحمرة وجنتي "جينجر" بلا مبرر واضح. قلت:

– "جينجر"، أترغبين في...؟

– ماذا؟ أن تكوني أمًا؟

– إنك تعلم ما أريد قوله.

– ربما. لكني أريد تقدمة أكيدة. قدمتها إليها. ثم بعد فترة من الزمن سألتني:

– هل أنت واثق بأنك لا ترغب في الزواج من "هرميا"؟

– يا إلهي. لقد نسيت. وفي الحال أخرجت خطابًا من جيبي.

– تاريخ هذا الخطاب يرجع إلى ثلاثة أيام. إنها تطالبني فيه بالذهاب معها إلى "أولد فيك". انتزعت "جينجر" الورقة من بين أصابعي ومزقتها ثم قالت لي في جدية:

– عندما ترغب مستقبلاً في الذهاب إلى المسرح ستذهب معي.

تمت